

أحمد الشيباني

دراسات في العقائد

الراسمالية - الاشتراكية - السبوعية - الصهرية

مكتبة النهضة - بغداد

دار الكاتب العربي - بيروت

دراسات في العقائد

الاهداء

الى أخي وصديقي

الاستاذ الكبير فدي فلعي

العقائد والأهلؤ

١ - مدخل

إن القيمة الحقيقية لكل عقيدة ، إنما تمثل في المذهب الأخلاقي الذي توظفه داخل الانسان غريزة " فطرة وسلوكاً ، فليس المهم في العقيدة أن تبدل شكل الدولة وتغير نظام المجتمع ، بل انما المهم المهم هو في ان تصوغ داخل الفرد شكلاً ونظاماً أخلاقيين ، وذلك لان العقيدة شيء حي متحرك ، وهي تستمد حياتها من سلوك الانسان ، وحركتها من ممارستها لها . ولما كانت الاخلاق هي وحدها التي تنظم السلوك وتنظم الممارسة ، لذا فان توطد العقيدة وسلطانها ، او تهافتها وزوالها ، يتوقفان كلياً على مدى انسجام العقيدة وجوهر الاخلاق الثابت وغير المكتسب ، او على مدى تعارضها وقواعد هذا الجوهر ، فالاخلاق كما أكدت الاحداث التاريخية هي وحدها الروح والطاقة لكل عقيدة ونظام ، علماً بأن الاخلاق لا تدعن ابداً للحواس ولا تستسلم لها ، اذ ان مهمتها الاساسية هي السيطرة على هذه الحواس وترويضها وجعلها منتظمة متناسقة والنظام الاساسي الذي ينتظم الكون الكبير في كل مخلوقاته وكواكبه وانظمته الشمسية ومجراته وانهار مجراته ، لذلك فان جوهر الاخلاق الثابت غير قابل للتأثر بأي عامل اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي ، بسبب كونه فوق كل هذه العوامل ، أو بالاحرى الناظم لهذه العوامل والمقرر تبني أو اطراح بعضها أو كلها أو خلق عوامل جديدة ، بغية الحفاظ على التناسق والانسجام والتناغم بين حياة الانسان على هذا الكوكب وبين النظام الاساسي الذي ينتظم الكون الكبير ، لذلك

فان الاخلاق قواعد كونية ثابتة لا يحدها مكان أو زمان ، ولا يبرجها ظرف ولا يفسرها وضع ولا تبررها أوضاع ، فجوهرها جوهر الكون ، فهو ازلي أبدي ، وقاعدة اساسية ، لا بل القاعدة الاساسية لنظام الكون الكبير المتناسق المتناغم ، هذا النظام المنتظم والناظم لسلوك كل ما في ومن في الكون وممارسته . لذلك فكل عقيدة لا ترتفع بمذهبها الاخلاقي إلى المستوى الكوني تسقط وتنهار ، وتمجز عن ان تستولد حضارة تقترب بالانسان الى جوهر الوجود للكون ومسبباته ، وقد صدق الفيلسوف الالماني « عمانوئيل كنت » ، « Kant » عندما قرر أن الانسان لا يستطيع ألا عن طريق الأخلاق ، والأخلاق وحدها ، أن ينفذ الى الايمان بالله ، أو بالأحرى أن يربط وجوده بوجود الكون ، ويوفق بين سلوكه ونظام الكون ، لذلك فان كل عقيدة أصيلة ثابتة الجوهر ، لا يمكن لها ان تنافي الدين أو تتعارض معه ، أو تنفذ الايمان بالله ، لأن الله كما اؤمن ويقول « كنت » Kant هو نموذج الكمال والعلو الوحيدة القادرة على إيجاد الخير الأسمى الذي يشعر العقل العملي ، أي التفكير الاخلاقي ، بوجوب تحقيقه للانسان . وقد صدق « غوته » ، عندما قرر بان الكون هو « النسيج الحي للابدية » . زد على ذلك ان النفس العربية ، بصورة خاصة ، إذا ما امتازت بشيء ما ، فأنما تمتاز بجنينها الدفء الجارف إلى المطلق ، وبرغبتها الضارية في تجاوز ذاتها وتجاوز كل ما يقع داخل نطاق الحس والحواس ، وهذا هو السر الكامن وراء جبروت تلك الانطلاقة الصاعقة في سرعتها ، تلك الانطلاقة التي بدأت بمحمد وانتهت عندما أصبحت العظمة الانسانية ، كما يقول « شبنجلر » تقاس بالباع والذراع ، وتقدر بالقنطار والدينار ، بعدما كانت تقاس بما لا يُحسّ به من الاخلاق والمناقب .

نعم لقد انتهت عندما أصبحت الحواس ناظماً للعقيدة والمنفعة دستوراً للممارسة ، وأمسى التوق إلى الرغبة ، لا إلى الكون ، شغل العرب الشاغل ، وصارت الحياة وسيلة الى العيش ، بعد ان كان العيش شيئاً من وسيلة الى الحياة . وهنا مات كل حافز الى ممارسة الفضائل الكونية ، فالفضائل كما يقول

« افلاطون » هي « حركة النفس نحو الله ، والجمال هو النفس الحية أو الالهية غير المنظورة في الاشياء ، وانها غلبة الروح على الجسد والصورة على المادة والعقل على الاشياء . »

لذلك فإنني اؤمن بان مهمة الدولة العقائدية إنما تتركز على بعث الجوهر الاخلاقي في الفرد وسيادة هذا الجوهر في المجتمع ، لهذا فان مفهوم الحكم اليوم هو في حقيقته مفهوم تربوي اكثر من كونه أي مفهوم آخر ، فلم يعد هناك في هذا العصر الثوري ، هذا العصر الذي أخذت فيه الاعناق والابصار تشرئب الى الكون الكبير ، من قائد أو زعيم قادر على ان يستمد قواه الالهية من سحر شخصي أو من إستنفار غرائزي للجهاير ، بل إنما أصبح المنبع الاوحد لقواه يتمثل في قدرته على تفجير الطاقات الاخلاقية الخلاقة في نفس الانسان والامة ، وخاصة في أمة كالامة العربية التي تملك كما يقول عنها البانديت نهرو « غريزة اجتماعية سامية تقدسها اعظم تقديس ، وذلك لاعتقادها بان ما من بناء اجتماعي يتركز إلا على أساس الإرادة العامة ، لا على الرغبة المستبدة ، ولا على التنظيم المتشابك الذي لا يستقر إلا بعد أن تعيد الاجيال نظرها فيه مراراً وتكراراً . » وصدق ابن خلدون ايضاً حيناً قال : « ان العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية ، أو أثر عظيم من الدين على الجملة . . . والعرب اسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الاخلاق . »

وصدق لورنس حيناً وصف العرب في كتابه المشهور « أعمدة الحكمة السبعة » فقال عنهم :

« لأنهم يمكن ان يقادوا إلى نهايات الارض ، على أن يكون قائدهم نبياً ذا رسالة . »

من كل ما أورده آنفاً بحثاً وأمثلة ومقتبسات وددت ان أبرز الحقائق التاريخية التالية :

ا - إن قيمة العقيدة إنما تقدر بقيمة المذهب الاخلاقي الذي تستخلصه من فطرة الانسان الخيرة وتجمله لأظماً للمجتمع وقانوناً للدولة ودستوراً للانسانية .

ب - إن الاخلاق قوانين حديدية يجب ان تنتظم ، داخل نفس الفرد الانسان ، البيئة والمجتمع والدولة والانسانية والكون الكبير ، وان الاخلاق - الانسان هي بمثابة الآلة المتناغمة الالحان والآلات الموسيقية الاخرى التي تعزف منذ الازل وإلى الابد ، تلك السمفونية الرائعة المسماة بالكون .

ج - ان كل عقيدة تتنازل او تلبذ الميتافيزيكا ، إنما تتنازل وتنبذ الاخلاق ، وتحقر الكون الكبير الممثل والمائل في الفرد الانسان ، لذلك يتوجب ان يكون لكل عقيدة لاهوت لا أيديولوجية .

د - إن الحضارة ، كما يقول برنارد شو ، الفابائي المعروف ، تحتاج الى دين ، وإن حياتها او موتها يتوقفان على ذلك ، والحضارة إنما تسقط ، كما يقرر المؤرخ الكبير أرنولد توينبي ، في اللحظة التي تكون فيها قوة « الانسان » اشد من قوة الدين .

هـ - ان تاريخ الانبعاث العربي السابق قد دلل ، بما لا يقبل الشك ، على ان كل عقيدة تريد ان تسيطر على النفس العربية ، عن طريق تنظيم الامور المعاشية فقط ، واهمال الجوانب الروحية ، هي عقيدة منبوذة ، سلفاً ، شكلاً وموضوعاً ، لانها تتعارض والقواعد السيكلوجية الاساسية للنفس العربية ، هذه القواعد المثبتة في الابداء والنخوة والشهامة ، والمنظورة على الديمقراطية المباشرة ، والهاطقة لكل ستر يفصل المحكوم عن الحاكم ، والمواطن عن الرئيس : لذلك فان النفس العربية ، هي من ذاك النوع الذي لا يقايس على حريته برغيف .

و - انني أؤمن عميق الايمان ، واثماني هذا ليس قضية ارادية كما يعتقد

جون بول سارتر بالايان، بان الامة العربية هي الامة الوحيدة القادرة على ان تقدم للانسانية على ظهر هذا الكوكب رسالة كونية خالدة ، وهذه الرسالة تتمثل في إعادة التوازن داخل الانسان بين ضميره وعقله وحواسه وذلك عن طريق اخلاق انسانية اصيلة ، فلقد ثبت تاريخياً ان الحضارة إنما تنهار حينما يختل هذا التوازن ، فاذا ما سيطر العقل وحده على الانسان ، وحارب الاعتبارات الضميرية ، فعندئذ تسيطر مباشرة الحواس على العقل والانسان معاً ، لان الحواس هي طريق العقل الى النشاط والعمل ، إذن الحل الحقيقي للمشكلة الانسانية لا يمكن ابدأ ان يتم عن طريق إقصاء الاعتبارات الضميرية عن هذه المشكلة ، بل إنما يتم دائماً حينما تسيطر الاعتبارات الضميرية على هذه المشكلة ، ويترك لها وحدها حرية التصرف والعمل ، فالضمير هو وحده ذاك الميزان الذي يجب ان توزن به جميع استنتاجات العقل ونوازع الحس ، وعندما تتخذ من الضمير ، الذي هو من الاخلاق بمثابة مركز دائرتها ، ميزاناً لنا فعندئذ لن نسقط ابدأ ، وقد صدق جان جاك روسو حينما قال :

« إننا نسأل الله لماذا خلقتني ضعيفاً بهذا الشكل ، فتجيبنا ضمائرنا : إنما خلقتك أضعف من أن تقوى على إنقاذ نفسك من الهوة لأنني خلقتك أقوى من أن تسقط فيها . »

ز - ليس هناك في العقائد او السياسة المتوخية تنفيذ المعائد وتجسيدها في المجتمع من اخلاق مثالية واخرى واقعية ، بل إنما هناك اخلاق واخلاق فقط تتجاوز كل الظروف والاعتبارات والحالات من آنية وطارئة ، لانها ترى فيها اعراض مرض ، وعوارض داء ، فالغاية لا يمكن ، لا بل لا يجوز ابدأ ان تفصل عن وسائلها ، كما ان الجريمة لا يمكن لها ابدأ ان تكون وسيلة من وسائل تحقيق او تحقق مثل

اعلى ، فالاخلاق التي تسلم للاوضاع والظروف والحالات ، تمجز
ابداً ودوماً عن ترويضها او تبديلها ، وتسمي في النهاية ضحيتها
وفريستها ، وقد قدم لنا التاريخ كثيراً من العصور الضخمة والمعدمة
من العظمة ، لانها معدمة من الاخلاق ، ووجدنا ان معظم اللامعين
من ابناء تلك العصور كانوا اذكاء لاخلاق لهم ، قادرين لا ضمير
لهم ، شجعاناً مجردين من النخوة والشهامة والشرف ، لقد اسسوا دولاً
وبنوا امبراطوريات ، لكنهم عجزوا عن بناء الانسان ، فدالت دولهم
وانهارت امبراطورياتهم ، ولم تبق منهم سوى آثار للتشدد على ما
تستطيع الحيوانية ان تنجزه من اعمال مروعة سوداء دامية ، فدخلوا
صفحات التاريخ كأنهم علامات تحذير وانذار للانسانية من ان
تسلس ، مستقبلاً ، لأمثالهم ، قيادها ، وكان هؤلاء فلاسفة الاخلاق
الواقعية وشياطينها .

ان ما تسمى بالاخلاق الواقعية ، إنما هي الوجه الحقيقي الكالح للعممية ،
المؤمنة بان اليوم لا غد بعده ، وان الحياة تقتضي عند عتبة القبر . وكما يبدو
الانسان حقيراً تأفهاً ، اذا ما أقام دستور اخلاقي الناظم لسلوكه وممارسته
والحافز لهمة وحيويته ، على اساس ايمانه بان حياته بدأت بعملية جنسية قام
بها والداه ، وتنتهي في غياب اللحد ؟؟ عندئذ لن تكون الحياة البشرية اكثر
من ملهاة عابثة ماجنة خطها قلم عدمي مجنون .

٢ — الأخلاق والحضارة الغربية في معسكرها

إن المتمعن في الرأسمالية والشيوعية معاً ، ليجد أن كلتا العقيدتين إنما
تنبعان من نبع واحد هو النظرة المادية الى الحياة . ومع أن الشيوعية تعتبر ،

والحق ، ثورة على الرأسمالية في حقول الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، لكنها تتفق وإياها في حقل الاخلاق ، فكلتاها تدينان بالمذهب الاخلاقي الميكافيلي ، وكلتاها تمارسانه ضميراً وعقلاً وفعلاً ، ولا غرو في ذلك ، إذ أن الشيوعية والرأسمالية خاضعتان خضوعاً كلياً للحواس ، وإن كانت الشيوعية تهدف ، كما تقول ، إلى إشباع حواس كل فرد من البشرية (الانسانية) ، بينما أن الرأسمالية تتوخى إشباع حواس طبقة واحدة . فالرأسمالية تستهدف أن تستأثر بالارباح لأبناء طبقتها ، بينما أن الشيوعية تستهدف أن تعيد فائض القيمة - أي الارباح - إلى المنتجين الحقيقيين ، أي العمال (والفلاحين) . إذن فهدفها واحد وغايتها واحدة ، ألا وهو الربح المترجم نقداً وعقاراً وأمور عيش . ولما كانت كل المقدمات المنطقية تقول بأنه في حالة تماثل الأهداف والغايات ، فعندئذ تماثل أيضاً الأساليب والوسائل للوصول إليها ، ولما كانت أيضاً الأساليب والوسائل هي في واقعها الاجتماعي ، إنما تنبئ عن أخلاق اصحابها وماهيتها ، لذلك فإن كلتا العقيدتين تدينان بمذهب اخلاقي واحد ، وإن كان مذهب الشيوعية الاخلاقي أوسع شمولية في تأمين الرغد ورفاه العيش ، كما وإن كلتا العقيدتين ملحدتان لا تؤمنان بالميتافيزيكا ، وإن كانت الرأسمالية تؤم الجوامع والكنائس والكنيس ، أما الشيوعية فهي تفاخر بالحادها ولا تحفيه ، ولا غرو في ذلك فكيف نريد ممن يؤمن بالارقام وينبذ كل شيء لا يدخل صندوقه أو معدته ، أن يؤمن بكون كبير أو بدين أو بالله ، ولذلك كله أنهارت الرأسمالية ام سيطرت الشيوعية ، او العكس بالعكس ، فإن المشكلة الانسانية تبقى دون ما حل ، لأن المشكلة الاساسية هي مشكلة اخلاقية ميتافيزيكية ، مشكلة احد عناصر حلها هو الوجود المادي ، وليس هذا الوجود هو كل عناصره او مفتاحه . زد على ذلك أن الاخلاقية المادية في شقيها الرأسمالي منها والشيوعي ، سينتهيان بنا في آخر المطاف ، إلى نتيجة واحدة ، وهي الابقاء على القلق الروحي الذي ما يزال الانسان يعانیه منذ أن عرفت الحضارة الغربية في مطلع القرن الخامس

عشر طريقها إلى الوجود . فالأخلاقية المادية هي من الوجهة اللاهوتية أخلاقية انغزالية ضيقة ذات أبعاد ثلاثة ، وإن كان يُعدها الثالث ، ارتفاعاً أم عمقاً ، يأبى حتى هذا اليوم أن يتجاوز طبقات الجو العاليا ، في وقت أخذ العلم يتجاوزها فعلاً وواقعاً ، وهكذا بدأ العلم اليوم يجاهد ليندمج في الاخلاق ويدرب فيها .

والعلم كما نعلم جميعاً ، يبدأ إلهاماً ضبابياً غامضاً ثم يصبح علماً يخضع للعواس والارقام ، لذلك كانت الأخلاقية المادية تتعامل مع الجدول لا النبع ومع الظل لا الأصل . زد على ذلك أن جميع مقاييسنا المعنوية والمادية والزمنية قد قررناها وفقاً للنظام الشمسي الذي يتبعه كوكبنا ، ووفقاً للظروف الحياتية التي نشأت منها وتطورت وفقها الحياة على هذا الكوكب ، وهذا ما يقول به جميع الفلاسفة الماديين الحديثين ، من داروين إلى ماركس وإنجلز وفرويد ، وهذا ما يعني أن الإنسان سلب الإرادة الحرة ، وأن دوره في الوجود لن يتعدى أبداً دور المنفعل والمتفاعل مع هذا الوجود ، إلى دور الفاعل فيه ، لأنه جوهره وضميره . واليوم وقد أصبحنا نقف على اعتاب الكون الكبير ، يتوجب علينا أن نعيد النظر في جميع المقاييس والقواعد التي عرفناها وتبينناها ، وذلك إذا كنا حقاً صادقين بأن كوكبنا ليس هو وحده الكون ، بل أنه ذرة رمل من رمال محيط لا حدود له أو شواطئ ، زد على ذلك أن اينشتين نفسه قد قرر أن جميع القوانين والقواعد العلمية المألوفة لدينا لا تصلح للتطبيق على الكون الكبير . لذلك فالأخلاقية المادية في شقيها الشيوعي منه والرأسمالي لا تستطيع أبداً أن تسند الإنسان وهو يرد في هذا العصر بجرأة وشجاعة على تحدي الكون له . وقيمة العقيدة كما قلت آنفاً ، إنما تتمثل في التأييد الذي يستمدّه منها الإنسان في لحظات الحسم ، في اللحظات التي يتسأى فيها الإنسان وجداناً وفكراً وإرادة ، والمادية عقيم وغير ولود لمثل هذا التسامي ، لأن المادية لا تؤمن بأن الإنسان يمكن أن يكون له دور في هذا الوجود غير دور المنفعل والمتفاعل ، وأن التطور يحدث بصورة عرضية لا

تدبير فيها ولا حكمة . وقد رد جورج برنارد شو على هذه النظرة الى الحياة رداً رائعاً حيناً قال :

« اي امل هنالك إذن في ان تسير الانسانية الى افضل ؟ إذا كان الداروينيون الجدد والميكانيكيون لا يعتقدون بأن هناك شيئاً من الامل لان التطور لا يحدث إلا بصورة عرضية لا تدبير فيها ولا حكمة ... بيد أن هذه العقيدة الشقية لا تثبط عزائم أولئك الذين يؤمنون بأن الدافع الذي ينجم عن التطور هو خلاق . وقد لاحظوا حقيقة شديدة البساطة وهي ان الإرادة التي تصر على شيء تفعله في النهاية ، وهي تستطيع ، في لحظات معينة من التركيز الذي يبلغه لايمانها بالحاجة إليه ، ان تخلق وتنظم كياناً جديداً ، ولهذا فهم لا يعتبرون الجنس البشري لعبة لا إرادة لها . »

نحن لا نستطيع ان ننكر ان الشيوعية جاءت بمثابة رد فعل عنيف للرأسمالية التي مارست في القرنين التاسع عشر والعشرين افجع المآسي الانسانية واحط الرذائل ، من إستغلال واستعمار واستعباد ، ولكن الشيوعية مع ايمانها بضرورة هدم جميع التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي نشأت عن الرأسمالية ، إلا انها عجزت كل العجز عن إيجاد حافز جديد للانسان ، حافز يبقي للإنسان طاقته الفاعلة في الكون ، ويعطيه معنى لوجوده ، وسبب عجز الشيوعية عن إعطاء مثل هذا الحافز يعود أولاً واخيراً ، الى انها بدلاً من أن تنفي الحافز الذي وطدته الرأسمالية في النفس الانسانية ، هذا الحافز الممثل بحب العيش ، جاءت لتؤكده وتجعل منه فلسفة وديناً ، ولا شك ان القارئ ليدرك عميق الادراك الفروق الجوهرية بين حب للعيش وحب الحياة . فالحيوان يحب ان يعيش ، اما الانسان فيتوق الى ان يحيا .

ومن الطريف ان نرى اليوم في الاتحاد السوفياتي ان ابناء الجيل الجديد فيه ، جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية من ابنائه ، يلتقون في سلوكهم الشخصي

ومثله من ابناء الدول الرأسمالية ، واعني بهذا الجيل ، الجيل الذي يطلق عليهم اليوم في بريطانيا لاسم Tedy Boys ، ويقوم الآن الكتاب والمفكرات السوفيات المتخضرون ، الذين عاشوا في عهد ستالين ويعيشون في عهد خروشوف ، بشن الحملات الشعواء عليهم ، ويمثل هذا الجيل في الاتحاد السوفياتي الشاعر السوفياتي الشاب إفتشنيكو ، ويحاول هذا الجيل ان يقلد في سلوكه ، او بالاحرى ان يسلك السلوك ذاته الذي يسلكه جيل « التدي بويز » في البلدان الرأسمالية الغربية ، وهذه الظاهرة هي ذات مغزى عميق ، وعميق جداً ، إذ انها تدل دلالة واضحة على بداية الالتقاء بين الرأسمالية الجديدة ، رأسمالية القرن العشرين ، الرأسمالية الخاضعة لضريبة الدخل العالي ، وبين الشيوعية ، فالرأسمالية الحديثة تتطور اليوم إلى كما يريدوا ووصفها جيه س برنهام ، التروتسكوي السابق ، الى اعتماد نظام المديرين . كما تدل دلالة واضحة على ان الشيوعية في الاتحاد السوفياتي ، بعد ان جعلت او تكاد تجعل من الاتحاد السوفياتي ، دولة على مستوى الولايات المتحدة الاميركية ، اقتصاداً ودخل فرد ، اوشكت ان تستنزف طاقاتها الثورية ، واوشكت ان تلقي بأبنائها إلى الحيرة والقلق اللذين تعانيهما اليوم شبية الدول الرأسمالية الغربية . وقد اورد الكاتب الروسي لادوا كرانسكو في كتابه المعروف « الحياة بدون ستالين » مقطعاً طريفاً يصف فيه مسلك هذا الجيل ويقول :

« إن هؤلاء يسمون ليننغراد ببتروغراد ، وستالينغراد بتزاريستين ، وشارع غوركي في موسكو « بشارع برودواي » ، يحبون ان ينادوا رفيقهم « يهلو مستر » ، والكوبيك ، امسى على لسانهم « سنتا » ، و« الروبل » ، « دولاراً » ... »

ومن اطراف الطرائف ان تخرج اليوم نظرة « جديدة ؟! » ، إلى الحياة ، واعني بهذه النظرة - الوجودية ، وإذا كان هناك من قيمة للوجودية ، فان قيمتها تتمثل في كونها ظاهرة بالغة الاهمية ، ودلالة على ان المادية اخذت

تحاول جمع شتات ابنائها من رأسمالين وشيوعيين لتصهرهم في الوجودية ، هذا المذهب الذي يمثل نقطة الالتقاء الرأسمالي الشيوعي في المادية المتجهة الى هاوية الانحلال والمعدم ، ولانني هنا أود ان اكتفي بإيراد بعض ما ورد على السنة بعض اقطابها ، وذلك لانني اعد في الوقت الحالي دراسة عن هذا الموضوع :

يقول سارتر :

« حكم على الناس باليأس ، لانهم يكتشفون ان جميع النشاطات الانسانية متساوية متماثلة ... وانها كلها مقدر عليها الاخفاق ، مبدئياً ، وهكذا سواء على الانسان ، أتعاطى الكؤوس في عزلة أم قاد الشعوب . »

ويقول شتوف :

« إذا كنت حقاً تريد الخلاص ، فعليك ان تقتل العقل والشرع ، ذلك لأن الانسان لا يسهه ان يعيش معها . »

ويقول ألبير كامو :

« ليست هناك إلا قضية فلسفية واحدة تتمتع حقاً بصفة الجد ، وهذه القضية هي الانتحار . »

ويقول كامو في مكان آخر :

« تؤلف خمرة اللامعقول وخبز اللامبالاة عظمة الانسان ... اللامعقول اضاء لي هذه النقطة ، ليس ثمة من غد ، هذا ما يؤلف ، بعد الآن ، سبباً لحربتي العميقة . »

ويقول كامو ايضاً :

« إن الايمان بمعنى الحياة يفترض دائماً سلماً للقيم واختياراً واشياء نؤثرها ، اما الايمان باللامعقولة ، الذي ابشر به ، انا كامو ، فيقول العكس . »

ويقول الوجودي المسيحي المعروف غبريل مارسيل :
« ... وواقع ان الحياة قد تبدو مجردة من المعنى ، بكل ما تعني كلمة
« مجردة » ، هذا الواقع يؤلف جزءاً مكملاً من أجزاء كيانها . »
وهناك آلاف الاقوال « الماثورة » غيرها عن اقطاب الوجودية من كتاب
وفلاسفة .

وختاماً وددت ان اكتب هذا المدخل رغبة وحساً مني ، في محاولة لفت
نظر الشبيبة العربية ، في هذه المرحلة ، من مراحل انبعاثنا القومي والانساني ،
إلى الحقيقة القائلة بأن قيمة العقيدة انما تتمثل في انسجامها والاخلاق الانسانية ،
هذا الجوهر الذي يربطنا بالله والكون .

أحمد الشيباني

الرأس المال

ما هي الرأسمالية — فلاسفة الرأسمالية — الرأسمالية والاستعمار

١ - مدخل تاريخي

تنحدر الرأسمالية من صلب البرجوازية ، ومع أن البرجوازية في مرحلتها الأخيرة هي الرأسمالية في مرحلتها الأولى ، غير أن هناك كبير فرق بين مفهومي الرأسمالية والبرجوازية ، فالبرجوازية تمثل طبقة اجتماعية يتركز نشاطها على تصدير السلع واستيرادها ، أما الرأسمالية فتتمثل طبقة اجتماعية تملك مشروعات صناعية تحل فيها الآلة محل اليد العاملة ويصبح المال لديها عنصراً جوهرياً من عناصر الاقتصاد. إذن فإن البرجوازية في دور الشيخوخة هي الرأسمالية في دور الطفولة .

لذلك يحتم علي تسلسل البحث ان القى نظرة خاطفة على البرجوازية ، وان اسرد سرداً موجزاً تاريخ تطورها .

ولدت البرجوازية في كنف نظام الاقطاع ، ونظام الاقطاع كما يعلم القاريء يستند في دستوره الى القواعد التالية :

- ١ - انعدام الحكم المركزي .
- ب - التبعية الدائمة او القنانة (Serfdom) .
- ج - الخدمة المجانية الاجبارية في ارض « السيد » يوماً كل اسبوع .
- د - الخدمة الاجبارية المجانية في المواسم في ارض « السيد » .
- هـ - تقديم الهدايا في الاعياد والمناسبات الى « السيد » .

- و - طحن الغلال في مطحنة «السيد» وعصر محاصيل الكروم في معصرة .
ز - لا يجوز للفلاح « القن » ترك عمله في ارض « السيد » .
ح - « السيد » هو المرجع الاوحد للاقنان في جميع الحالات واحكامه غير قابلة للنقض .

(لقد تعمدت ان اسوق في حديثي عن البرجوازية القواعد الاساسية لدستور الاقطاع ونظامه وذلك رغبة مني في ابراز اسباب ثورة البرجوازية على الاقطاع مستقبلاً) .

تشتق كلمة البرجوازية من كلمة Burg اي « القلعة » وقد اطلقت على فئة التجار او الباعة المتجولين الذين كانوا يؤمون الارياض ليبادلوا على المنسوجات والمعطورات والتوابل بالمنتجات الريفية ومشتقاتها ، لذلك كان اول مطلب للبرجوازيين يتمثل في حصولهم من « السادة » الاقطاعيين على حق الانتقال وحرية التجوال بين الاقاليم ، هذا الحق الذي لم يكن مباحاً للفلاحين الاقنان وقد استجاب « السادة » الاقطاعيون لهذا المطلب لقاء مبالغ من المال قام البرجوازيون بدفعها اليهم .

اما في الشتاء وعندما تغمر الثلوج والاحوال الطرق والمسالك فيغدو التجوال والانتقال عسيراً صعباً ، فكان البرجوازيون يتمركزون في القرى الواقعة على مفترق الطرق او عند مصب الانهار ، ومن ثم اخذوا وبالطبع بموافقة «السيد» صاحب الاقطاعية ، يبنون المنازل في تلك النقاط ذات الاهمية التجارية ، وهكذا تكونت شيئاً فشيئاً المدن التي اطلق عليها اسم Burg ، كما وانهم طلبوا من « الاسياد » اصحاب الاقطاعيات السماح لهم ببناء الاسوار حول مدنها ، فسمح لهم بذلك لقاء ما دفعوه لهم من مال او هدايا . وكان هؤلاء التجار هم انفسهم يقومون بحراسة المدن ، وهذا مما يخالف دستور الاقطاع الذي يحصر بالسيد مسؤولية حماية الاقنان وتوفير الطمأنينة لهم . وبذلك اصبح لهذه المدن شبه استقلال إداري ، غير ان الكلمة العليا بقيت للاسياد ، اصحاب الاقطاعات

الذين كانوا يتقاضون نسباً معينة من الارباح . ورغبة من البرجوازيين في الحفاظ على مصالحهم وتدعيم أمنهم وتوفير اسباب طمأنينتهم بدأوا في تكوين الاتحادات عامة ، وكان يتحتم على كل تاجر ان يقسم بين الولاء للجميع .

اخذت المدن تنمو شيئاً فشيئاً وتكونت طبقة اجتماعية جديدة ، وبرزت البرجوازية في المجتمع الاقطاعي ، المؤلف من طبقة النبلاء وطبقة رجال الدين والاقنان ، ورأت الكنيسة في هذه الطبقة الجديدة خطراً دائماً على سلطانها ، وخشي رجال الدين ان يفقدوا سلطاتهم الواسعة على المدن الناشئة ، لذلك قاموا بشن الحملات العنيفة على البرجوازية ، فاستطاعوا ان يمنعوا الاحتكار ويمنعوا السمسة ويحددوا الأسعار ويحدوا من ارباح البرجوازية . وقام واعظون دينيون « كجاك دوفيزي » و « ايف دو شارتر » لمحاربة الربا ، غير ان البرجوازية لم تتأثر بهذه الحملات ، بل دعمت سلطاتها في المدن واخذت تديرها حسب رغباتها ، واصبحت هي التي تشرع لنفسها وهي التي تسن القوانين التي تلائمها . وهي التي تختار قضاتها وفجأة تبدلت المقاييس واختلت الموازين واصبحت الثروة هي التي تحدد قيمة الفرد الاجتماعية لا الملكية الواسعة للأرض وغدا اثرياء البرجوازية اسياداً مطلقين الصلاحيات يكبدسون الاموال وينمون الثروات غير عابئين بمصالح الشعب من نبلاء ورجال دين او اقنان ، وانقسم المجتمع في المدن الى طبقتين : طبقة الاثرياء الذين يملكون كل شيء ولهم السلطة السياسية من ادارية وتشريعية ، وطبقة المعدمين الذين لا يملكون شيئاً من مال ، او رأياً في توجيه السلطة ، ولقد وصف الحلف الفرنسي « بومانوار » في منتصف القرن القرن الثالث عشر الوضع الذي آلت اليه البرجوازية فقال : « إنك لترى ان الفقراء ومتوسطي الحال ، ليس لهم مركز واحد من مراكز الادارة في المدن بينما الاغنياء المسيطرون عليها تماماً ، ولئن كان بين رؤساء البلديات او الحلفين بعض رجال الطبقات الفقيرة ، فانهم بعد زمن صائرون حتماً الى وضع الاغنياء ذاتهم وحينئذ لا يعودون من طبقة الشعب » .

وهكذا كان لا بد للنبلاء ورجال الدين والاقنان والمعدمين من اهل المدن

من ان يتكثروا ضد هذه الطبقة الاجتماعية النشيطة والظالمة ، لذلك شهدت اعوام ١٣٢٠ ، ١٣٦٩ ، ١٣٧٢ ، انتفاضات وثورات لاهبة ضد البرجوازية في فرنسا وغيرها من البلاد الاوروبية ، غير ان البرجوازية الاوروبية لقيت في صراعها ضد هؤلاء ، حلفاء اقوياء هم الملوك . إذ كان الملوك آنذاك يطمعون في توسيع ممالكهم وضم الاقطاعات اليها وإخضاع الاسياد الاقطاعيين الى سلطانهم ، وبالفعل تمكن الملوك بمساعدة البرجوازية من توحيد الاقطاعات وحرمان الاسياد الاقطاعيين ورجال الدين من حق ممارسة القضاء بين الشعب ، وعندما تم للملوك هذا الظفر التفتوا الى البرجوازية فضموا ايضاً المدن الى ممالكهم واخضعوا مجالس البلديات الى سلطانهم . غير ان هذا العمل لم يؤثر على نفوذ البرجوازية او سلطانها ، إذ ان احتياجات الملوك المتزايدة للمال ، وتوفير المال لدى الطبقة البرجوازية دون غيرها من الطبقات الاجتماعية ، حافظ للبرجوازية على مكانتها المرموقة في المجتمع والدولة . ودليلي على ذلك هذا القانون العجيب الغريب الذي اصدره الملك « جان لوبون » عام ١٣٥٥ بفرض ضريبة تناسب عكساً مع الثروة إذ نص هذا القانون على ان تفرض على العائدات التي تقل عن عشر ليرات ضريبة قدرها ١٠٪ . والعائدات ما بين ١٠ - ١٠٠٠ ليرة تؤخذ عليها ضريبة قدرها ٣٪ . واما للعائدات التي هي ما فوق الالف ليرة إذا كانت لغير الاسياد اصحاب الاقطاعات فهي معفاة من الضريبة ، وكذلك عائدات النبلاء التي تتخطى الخمسة آلاف ليرة فهي معفاة من الضريبة ايضاً .

من هذا القانون يتضح ان السيطرة الفعلية كانت للبرجوازية .

لم تنس البرجوازية ما الحقته بها الكنيسة من اضرار واذى ، لذلك ركزت نشاطاتها على محاربة الكنيسة اذ انها ادركت بغيريتها انه لا سبيل الى القضاء على الاقطاع ونظامه الا بالقضاء على الاساس الروحي الذي يستند اليه هذا النظام فشجعت « مارتن لوتر » على الثورة ضد الكنيسة ، وأيدت مرأ جون هس ، وكلفن الذي وقف ليعلمن على رؤوس الاشهاد ولاءه للبرجوازية فيقول :
« لماذا لا نسمح لصاحب المال ان يستغل ماله ، بينما نسمح لصاحب الارض ان

يؤجر ارضه لقاء مبلغ من المال يحصل عليه دون ان يتعب نفسه في تحصيله ؟ ،
وأخيراً بدأ المال يلعب دوره الجوهرى في الاقتصاد ، فتأسست المصارف وتوسعت
اعمالها واصبحت النشاطات المصرفية عنصراً ضرورياً للاقتصاد ، وقد ساعد
اكتشاف اميركا على تدعيم مركز المؤسسات المصرفية ومضاعفة رؤوس اموالها .
واصبح المال شرطاً اساسياً لكل قوة . فاخذ الاثرياء يقومون بإنشاء المشروعات
الصناعية ، وبرز الى المجتمع العمل المأجور وولدت الرأسمالية على زعيق الآلة
وكدح العمال ، وقامت الثورة الفرنسية تنص في « شرعة حقوق الانسان » على ان
« حق التملك حق مقدس » وجاء نابوليون يفسر هذه المادة قائلاً :

« ما هو حق التملك ؟ انه ليس حق استعمال ما نملك فحسب ، ولكن ان
نمتصرف به كما نشاء ايضاً ، بل ان نغالي في التصرف ، يجب ان لا تغرب عن
الذهن فوائد الملكية وان على التشريع ان يكون دائماً بجانب الملكية . »

ب — فلاسفة الرأسمالية

يرى « فرنسوا كنياي » (١٦٩٤ — ١٧٧٨) وهو احد الفلاسفة الطبيعيين ،
انه يجب ان يكون الافراد أحراراً في العمل وان يسيروا وفق مصالحهم
الخاصة وان يسمح لهم بمزاولة المهن التي يختارونها ، وان تترك لهم حرية الانتقال
وحرية اجتناء الثروات وحرية التصرف في ممتلكاتهم كما يرغبون ، ولا يجوز ابدأ
للدولة ان تتدخل في نشاطاتهم ، كما وانه لا يجوز للدولة ان تمد يد العون لهم .
وملخص فلسفة « فرنسوا كنياي » هو « دعه يعمل ، دعه يمر » ، فالعالم يسير من
لقاء ذاته ، او بقول آخر « لا تتدخل فالعالم كفيلا ان يعنى بنفسه » .

اما آدم سميث (١٧٢٣ — ١٧٩٠) فانه يعتبر نبي الرأسمالية والعالم
الاقتصادي الاول الذي شرح الرأسمالية ووضع دستورها واشترع قوانينها ،

وكتاب « بحث في طبيعة واسباب ثروة الامم » والمعروف باسم « ثروة الامم » يعتبر إنجيل الرأسمالية والرأسماليين . ومن الطريف ان آدم سميث كان صديقاً حميماً « لجيمس واط » مخترع الآلة البخارية .

يعارض آدم سميث المذهب التجاري الغائل بان ثروة الامم تنبع من زيادة الصادرات على الواردات . ويقول سميث ان هذا المذهب خاطيء ، وذلك لان المنبع الوحيد للثروة هو العمل والموارد الطبيعية .

ويقول سميث ان ثروة الامم تتزايد نتيجة للمهارة والكفاية في العمل ، كما ان رفاه الامة انما يقاس بمقدار الدخل القومي الحقيقي ، وهذا القانون ايضاً ينطبق على الفرد . ويقول آدم سميث ان الوسيلة الاساسية لزيادة الانتاج تنحصر في تقسيم العمل واستخدام الآلات الميكانيكية ، فالتخصص الناشئ عن تقسيم العمل يرفع من طاقة انتاج العامل . ويرى سميث ان التحسين الذي طرأ على وسائل النقل قد وسع الاسواق وعمقها ، وهذا مما سيخطو بالصناعة والتجارة قدماً . ويقول سميث ان القيمة الحقيقية للسلعة تقدر بمقدار العمل المبذول لانتاجها ولذلك فان الانسان لا يقدم على انتاج سلعة ما الا اذا وجد ان فائدتها تستحق الجهد الذي يبذله لانتاجها . أما في حالة ما اذا وجد ان بإمكانه ان يحصل على تلك السلعة من طرف آخر بجهد اقل من الجهد الذي يضطر هو لبذله فعندئذ يجري عملية مبادلة مع الطرف الآخر . وعن هذه العملية ينشأ الكسب المتبادل بينه وبين الطرف الآخر . ويقول سميث ان الوسيلة لتحقيق الكسب المتبادل هي التخصص الناشئ عن تقسيم العمل والتجارة .

قانون العرض والطلب :

يقول سميث انه في ظل في نظام اقتصادي يستخدم النقود تكون للسلعة قيمتان الاولى حقيقية وهي العمل المبذول لانتاجها ، والثانية اسمية وهي السعر النقدي . ويقول ان القيمتين لا تتفقان وتساويان اكثر الاحيان فاذا ما ازداد الطلب على

على سلعة ما ارتفعت قيمتها الاسمية وبذلك يحني المنتج المزيد من المرباح، وهذه الزيادة من الارباح تخلق كما يري سميث المنافسة في الانتاج والتجارة إذ تقوم مشروعات اخرى بانتاج السلعة التي ازداد عليها الطلب ، وهذا ما سيؤدي الى انخفاض سعر السلعة ، وعندما يشبع السوق تنخفض القيمة الاسمية للسلعة المذكورة الى ما دون القيمة الاسمية ، ومن ثم يقول سميث بان القيمة الاسمية تبقى في معظم الظروف متذبذبة حول القيمة الحقيقية اما في حالة توازن العرض والطلب فعندئذ تتعادل القيمتان الحقيقية والاسمية .

ومن هذا يستنتج سميث قائلًا بان السوق الحرة ذات فوائد جمة للجميع ، إذ ان التنافس سيمكن كل انسان من الحصول على ما يحتاج اليه بأقل ثمن ممكن ، كما وان السوق الحرة ترغب اصحاب المشروعات على استخدام الموارد العامة في خدمة المستهلكين .

ومع أن آدم سميث يعترف اعترافاً ملتويًا بان هدف الرأسمالي هو اقتناص الارباح لا خدمة المجتمع ، غير انه يحاول من جهة اخرى ان يقول بأن الرأسمالي عندما يدير مشروعاً صناعياً، فان يداً خفية تقوده الى تحقيق غاية هي ليست من اهدافه، فهو أي الرأسمالي عندما يعمل على إنشاء مصلحة فإنه ينمي على حد اعتقاد سميث مصالح المجتمع بصورة فعالة اكثر مما إعترف وبهذا يقرر آدم سميث القانون الآتي :

« لو ازيلت كافة النظم سواء ما تعلق منها بالايثار او الضبط فان نظام الحرية الطبيعية الواضح والبسيط يثبت وجوده بمحض إرادته » .
ويؤكد آدم سميث ان ملاحقة الفرد لغاياته الخاصة تشكل الدعامة الاساسية للمنفعة العامة .

ويرى سميث ان الزيادة في الثروة القومية تؤدي الى ارتفاع الاجور، وان الصناعة ترفع من مستوى اجور العمال ، لذلك فان ارتفاع الأجور مرهون بنمو الاقتصاد ، ويقول آدم سميث ان هناك تقاهماً غريزياً بين ارباب الاعمال على على معدل للأجور إذ يصرح قائلاً :

« إن بين السادة دائماً في كل مكان تفاهاً شبه خفي، ولكنه دائم ومتجانس، من حيث عدم رفع أجر العمل فوق المعدل الفعلي » .
ويرى سميث أن الأرباح تميل إلى الانخفاض كلما زاد الشعب في جميع رأس المال، ويرد سميث سبب الانخفاض هذا إلى المنافسة في الصناعة .
ويقول سميث بأن المنافسة هي شرط أساسي من شروط تحقق الحرية الطبيعية، لهذا فإن آدم سميث يعتبر عدواً لدوداً للنظام الاحتكاري إذ أن الاحتكار على حد تعبير سميث « هو عدو الإرادة الحسنة التي لا يمكن قوافرها إلا نتيجة المنافسة الحرة العامة التي ترغب كل امرئ على الالتجاء إليها كوسيلة للدفاع عن النفس » .

ويأتي عقب آدم سميث روبرت مالتس (١٧٦٦ - ١٨٣٤) ونظريته التشاؤمية مشهورة وهي تقول أن الناس يتكاثرون وفقاً لسلسلة هندسية بينما تزايد موارد الطبيعة وفق عملية جمع لذلك فلا طريق لتخفيف الضغط عن موارد الطبيعة إلا عن طريق الحروب والأوبئة والمجاعات التي تفتك بالبشر .
وروبرت مالتس هو الذي قرر القانون المعروف باسم « القانون الحديدي للأجور » وهذا القانون يقول بأن الأجور لا يمكن أن ترفع فوق مستوى الكفاف لأن أية زيادة في الرخاء تؤدي إلى زيادة مباشرة وبمائلة في عدد العمال، وحينما تهبط الأجور دون مستوى الكفاف فإن الفائض من العمال سيقضي عليهم الموت .

وينادي روبرت مالتس بضرورة الزواج في سن متأخرة إذ يرى فيه خيراً عمياً للأخلاق الإنسانية والنظم وأنه يتوجب على كل امرئ ألا يزيد عدد أولاده عن طاقته على إعالتهم .

وأخيراً ينصح روبرت مالتس بعدم تقديم أية مساعدة أو عون إلى العائلات التي تعجز عن تدبير وسائل معيشتها، ومن الطريف أن مقدم هذه النصيحة من رجال الدين المسيحي .

ومن ثم يجيء « جان بابتيست ساي » (١٧٦٧ - ١٨٣٢) وهو أحد أتباع

آدم سميث وقد قام بتهديب نظريات آدم سميث ورتبها في نظام ومنطقي، وهو الذي وضع القانون المعروف باسم « قانون ساي » وهذا القانون يقول بأنه ما دام انتاج اية سلعة يخلق طلباً مماثلاً على سلعة اخرى إذن فلا بد ان يكون العرض الكلي مساوياً للطلب الكلي ، ومن ثم يقرر « ساي » قائلاً : « ونتيجة لهذا القانون لن يكون هناك وجود لما يُسمى « بالافراط العام في الانتاج » .

ج — ماهي الرأسمالية

أرى ان الرأسمالية هي المخطط الكامل الذي ابتدعته السلبية في العقل البشري لتنظيم وإدارة وتوجيه الغريزة البشرية في احط ادوارها الهمججية ، لذلك اعتبر الرأسمالية هي الحيوانية التي ينظمها العقل ، إذ انها تشل طمعا واعيا ونهما يقظا يعرف اهدافه ويعرف الوسائل التي يسلكها اليها ، وشراة تتغذى بالواقع وتهتدي بنور العقل ، واثرة ضيقة خانقة ، إنها في اختصار أرقى الدرجات التي وصل اليها « العقل الحيواني » في الانسان .

ففي ظل النظام الرأسمالي تنعدم حتى الفضائل القليلة التي عرفها مجتمع الاقطاع ، فضائل النخوة والشهامة والفروسية . لذلك يبلغ في النظام الرأسمالي الصراع بين « العقل الحيواني » ، « والعقل الانساني » ، في الانسان ذروته ، ويتخذ المجتمع من الغابة مظهرها وجوهرها فلا حياة إلا للأقوى ولا وجود للضعيف ، اما ام الفضائل ومنبعها في ظل النظام الرأسمالي فهو الربح ، الربح بأية وسيلة وسبب ، والرأسمالية كما سنرى فيما يأتي من بحث لا تتغذى من دماء الشعب فحسب ، بل إنما يلتهم الرأسماليون بعضهم بعضاً ايضاً .

وللرأسمالية قوانين رهيبية تسير بموجبها وتطبقها على كل نشاطاتها وهذه

القوانين الرهيبة هي :

- ١ - قانون البحث عن الريح .
- ٢ - قانون المزاحمة والمنافسة .
- ٣ - قانون التمرکز والقدرة على الانتاج وحصره .
- ٤ - قانون السعر الخفض .

١ - قانون البحث عن الريح :

ان هذا القانون يشكل التعارض الجوهرى بين النظام الاشتراكي والنظام الرأسمالي . فالنظام الاشتراكي كما قلنا في فصل سابق يمحصر غايات الاقتصاد في سد احتياجات البشر ، بينما ان النظام الرأسمالي يوجه الاقتصاد نحو تحقيق الارباح وإختباؤها وتكديسها في صناديق اصحاب المشروعات .

وتبدأ الرأسمالية اول ما تبدأ في تطبيق هذا القانون على المجتمع الذي تنشأ فيه وتنشط ، ويكون اول ضحايا هذا القانون العمال والمستهلكون إذ انها تسعى ابدأ الى زيادة ارباحها على حساب الاجور ، ونحن إذا ما عدنا الى المراحل الاولى من تطور الرأسمالية شاهدا مدى الاستغلال البشع الذي كانت الرأسمالية تمارسه ضد العمال ، إذ كان هدفها الاساسي يتركز اولاً واخيراً على ابتزاز اكبر قدر من الساعات الانتاجية من العمال لقاء اقل قدر ممكن للأجور . وهي لتحقيق هذا الهدف لا ترحم طفلاً او امرأة او شيخاً . ويورد كارل ماركس في كتابه المشهور « رأس المال » وفي الفصل العاشر منه والمعنون « بنهار العمل » رأي احد الرأسماليين البريطانيين المدعوا . ف . ساندرسون في قانون منع الاولاد الذين دون الثالثة عشرة من العمل ليلاً ، فيقول هذا الرأسمالي لا فض فوه ما يلي : « ان منع الاولاد الذين هم دون الثالثة عشرة من العمل ليلاً سوف تنجم عنه صعوبات كبرى ، واهمها زيادة التكاليف التي يسببها احلال

الرجال محل الاولاد، والى اي حد سوف ترتفع هذه التكاليف ؟ هذا سؤال لا يستطيع الاجابة عليه ، ولكن من المحتمل انها لن ترتفع الى درجة يستطيع معها صاحب العمل ان يرفع ثمن الفولاذ، لذلك فان الخسارة سوف يتحملها وحده نظراً لان العمال الرجال سوف يرفضون حتماً تحمل الخسارة .

ويدرج كارل ماركس في احد هوامش الفقرة الخامسة من الفصل العاشر من كتابه « رأس المال » مقطعا من التقرير الرابع المرفوع الى مجلس العموم البريطاني عن وضع الاولاد العمال في مصانع الزجاج في بريطانيا فيقول هذا المقطع : « ان اكثر الاولاد في معامل الزجاج حيث تصنع القناني الصواني والزجاج (Flint Glass) مرغمون على السير مسافة ١٥ - ٢٠ ميلاً تستغرق منهم ست ساعات لانجاز عملهم ، وكثيراً ما يستمر هذا العمل من ١٤ الى ١٥ ساعة ... وليست هناك ثمة لحظة واحدة للعب واستنشاق الهواء النقي ، إن لم يكن ذلك على حساب النوم الذي لا غنى عنه لاولاد يقومون باعمال قاسية كهذه في جو محرق كذلك الجو ... كما وان لحظات النوم القصيرة متقطعة لأنه يتوجب على الاولاد ان يستيقظوا « لقضاء حاجاتهم » في الليل او بسبب الضجة الخارجية التي تقلق نومهم في النهار » .

ويستطرد كارل ماركس فيقول بأن تقرير مفتش العمل السيد « وايت » قد اورد بعض الحالات حيث اشتغل ولد صغير ستة وثلاثين ساعة متوالية ، واخرى حيث يعمل بعض الاولاد حتى الساعة الثانية صباحاً ، ويستيقظون في الساعة الخامسة صباحاً اي لا ينامون اكثر من ثلاث ساعات ، ويدرج كارل ماركس في احد الهوامش فقرة من تقرير مفتش العمل « لورد » وذلك في الفصل العاشر من كتابه « رأس المال » وفي الفقرة الرابعة منه والمعنونة « عمل النهار وعمل الليل - نظام البديل » تتحدث هذه الفقرة عن نظام العمل فتقول :

« يعمل فريق وجبة النهار ، خمسة ايام كل اسبوع ، كل منها ١٢ ساعة ويوماً مقداره ١٨ ساعة ، اما فريق الليل فيعمل خمس ليال كل اسبوع ويوماً واحداً

في الاسبوع مقداره ست ساعات . وفي احوال اخرى تشتغل كل فئة اربعاً وعشرين ساعة بالتناوب ، فئة تعمل ست ساعات يوم الاثنين و ١٨ ساعة يوم السبت لاستكمال ال ٢٤ ساعة .»

ويستطرد السيد لورذ في تقريره فيقول :

« وفي حالة تغيب العمال المناوبين فئمة اطفال دون الثالثة عشرة ومراهقون دون الثامنة عشرة ، ونساء يستخدمون في هذا النظام العملي الليلي . وكثيراً ما يتوجب عليهم الشغل في نظام ال ١٢ ساعة بسبب غياب العمال المناوبين مدة الفئة المضاعفة (١٨ ساعة) ، وقد ثبت من اقوال الشهود ان صبياناً صفاراً وفتيات شابات ، غالباً ما يرهقون بالعمل الاضافي الذي لا يستمر ٢٤ ساعة فحسب بل يتعدها الى ست وعشرين ساعة ايضاً .»

ويستطرد السيد لورد في تقريره فيورد التالي :

« وفي معامل الدهان نجد فتيات في الثانية عشرة من العمر يعملن ١٤ ساعة يومياً طيلة شهر كامل دون اية عطلة منتظمة باستثناء نصف ساعة او ثلاثة اقسام الساعة ليتناولن وجبات طعامهن . وفي بعض المعامل التي تخلت عن عمل الليل يستمر العمل بصورة مفزعة ما وراء الوقت القانوني ، وخاصة ان العمل الذي يعملونه يتألف من اقذر العمليات واكثرها رطوبة وحرارة .»

ويورد كارل ماركس فقرة من تقرير مفتش العمل « ليونارد هورنر » في هامش بدء الفقرة السادسة من الفصل العاشر من كتابه « رأس المال » فيقول :

« مؤكداً انه لمؤسف جداً ، ان يتوجب على طبقة معينة من الناس ان تكدح كل يوم اثنتي عشرة ساعة فاذا اضفنا الى هذا الوجبات والذهاب الى العمل والاياب منه ، كان وقت العمل هو ١٤ ساعة في اليوم من اصل ٢٤ ... واذا وضعنا مسألة الصحة جانباً وارجو ان لا يكون ثمة من ينفي ان من وجهة النظر الاخلاقية ، يؤلف استغراق كهذا كامل وقت الطبقات العاملة ، دون انقطاع ، منذ سن الثالثة عشرة ، وفي فروع الصناعة ، ولذلك ولمصلحة الاخلاق.

العامة ، وابتغاء تربية شعب بارع مكين ، يجب ان تجري المطالبة في جميع فروع الصناعة ، بأن يخصص في كل نهار من نهارات العمل وقت للوجبات والراحة .

ويورد ايضاً كارل ماركس في الفقرة ذاتها وفي الفصل ذاته وعلى احد هوامشها نص العريضة التي قدمها عمال المغازل والمناسج عام ١٨٥٩ . يقول العمال في عريضتهم هذه ما يلي :

« لكي نقول الحقيقة برمتها ، نقول ان حياتنا عزيزة علينا ، وطالما بقينا مقيدين الى العمل تقريباً يومين (٢٠ ساعة) زيادة في الاسبوع فسوف نحس باننا عبيد اذلاء في البلاد ، وسوف نلوم انفسنا لاننا نخلد نظاماً هو سبب الهلاك المعنوي والجسماني لنا ولجنسنا ... اذن فنحن نخبركم بكل احترام ، اننا ابتداء من العام الجديد لن نشتغل دقيقة واحدة زيادة عن الستين ساعة في الاسبوع ، وذلك من الساعة السادسة صباحاً حتى السادسة مساءً مع حسم الاوقات القانونية للراحة وهي ساعة ونصف الساعة .

ويورد ماركس في الفصل ذاته مادة من القانون الصادر في ولاية نيو جيرسي الأميركية وتنص هذه المادة على ما يلي :

« ان اي قاصر بلغ الثانية عشرة ولما يبلغ الخامسة عشرة ، يجب ان لا يستخدم في مؤسسة « مانيفاكتورية » اكثر من ١١ ساعة يومياً ، ولا يجوز استخدامه قبل الخامسة صباحاً ولا بعد السابعة والنصف مساءً .

هذه حوادث اقتطفناها من هوامش كتاب « رأس المال » لماركس وهي كما يلاحظ القارئ تقارير رسمية مرفوعة من مفتشي العمل الى الحكومة البريطانية . ولا أظن ان هذه التقارير بحاجة الى تعليق او شرح .

اما الأجور فان الاولاد العاملين لم يكونوا يتقاضون اكثر من اربعة شلنات في الاسبوع (لاحظ ان الجنيه عشرون شلناً) ، وعندما صدر في انكلترا قانون الثامن من حزيران ١٨٤٧ الذي يقضي بتحديد ساعات العمل اليومي باحدى

عشرة ساعة اقدم الرساليون البريطانيون على تخفيض اجور العمال بنسب تتراوح بين ٩ و ٢٥ بالمئة، وكان المستوى الاعلى للأجر آنذاك يبلغ عشرة شلنات في الاسبوع .

ووفق هذا القانون ، قانون البحث عن الربح ، يصبح للعامل سلعة خاضعة لقانون العرض والطلب ، فليس للأجور حد أدنى او حد أعلى ، وانما تقرر مستواها حاجة السوق الصناعية اولا، ومقدار عدد العمال ثانياً . فاذا كانت حاجة السوق كبيرة وعدد العمال لا يفي بها ارتفعت الاجور، ويتتابع ارتفاعها بالنسبة لحاجة السوق ، اما في حالة كون عدد العمال يزيد عن حاجة السوق فعندئذ يخفض الأجر ويتدرج في انخفاضه يوماً بعد يوم واسبوعاً بعد اسبوع ، واخيراً في حالة توازن عدد العمال وحاجة السوق فان الاجر يحافظ على مستواه .

ولا يوجد في ظل النظام الرأسمالي كائن يدعى « الانسان » ، وانما هناك يد عاملة وإيد عاملة . فالنظام الرأسمالي لا يرى في الانسان سوى العضو المنتج منه ، الذي يقدم اليه الارباح والمرايح ، لذلك ينحدر النظام الرأسمالي بالانسان الى مستوى الآلة ، غير ان الآلة تلاقي عناية ورعاية من لدن الرأسماليين اكثر بكثير من الانسان، فتلف آلة في مصنع ما يعرض الرأسماليين الى خسارة محققة . ويقلص من ارباحهم غير ان موت انسان عامل لن يلحق بهم اية خسارة ، فبوسعهم ايجاد يد عاملة اخرى (عامل) يحل محله ، هذه هي نظرة النظام الرأسمالي في العامل الانسان .

ويدفع قانون البحث عن الربح بالرأسماليين إلى التفتيش عن المرايح في كل قطر وبلد من اقطار العالم . ففي مطلع القرن السادس عشر عندما كان « المذهب التجاري » يسود المجتمع الاوروبي بدأت طلائع الاستعمار تغزو القارات الاسيوية والافريقية والاميركية، وبدأت آنذاك نواة الاستعمار في هذه القارات تنمو وتترعرع، غير أن « المذهب التجاري » هذا المذهب الذي كان يوجه

نشاطات البرجوازية التجارية لم يمكن هذه الطلائع من ارساء قواعد ثابتة للاستعمار والمستعمرين ، وذلك لان أهدافه كانت محصورة في تجارة الصادرات والواردات . ولكن عندما بدأ النظام الرأسمالي يبرز الى الوجود فاكثفت الآلة البخارية واستت المنيفاكثورة ، وانشئت الصناعات ، ونشأت طبقة جديدة في المجتمع هي طبقة الرأسماليين مالكي وسائل الانتاج ، وجد هؤلاء ان صناعاتهم كي قدر ارباحاً مجزية هي بمسيس الحاجة الى الاسواق والمواد الاولية ، فاخذت طلائع الاستعمار في الدول الصناعية ، وخاصة في بريطانيا التي كانت تعتبر آنذاك الدولة الصناعية الاولى في العالم ، تقم علاقاتها بالبلدان المكتشفة في القارة الاميركية وبالبلدان المستعمرة في القارتين الاسيوية والافريقية على أسس جديدة قدعها القوات المسلحة من جيوش برية وبحرية ، وكان يتوجب آنذاك على الرأسمالية ان تخوض معارك ضارية ضد البرجوازية فنشبت الحروب بين اسبانيا وبريطانيا والبرتغال ، وساء عهد من القرصنة البحرية ، واخيراً هزمت الرأسمالية البرجوازية فانهارت الامبراطورية الاسبانية وفقدت اسبانيا سيطرتها على مستعمراتها في اميركا وآسيا ، كما وان البرتغال لاقت المصير نفسه ، فاصبحت بريطانيا الدولة الاوروبية الاولى ذات المستعمرات ، والامبراطورية التي لا تغيب الشمس عن ممتلكاتها . وعقب ان انزلت الرأسمالية البريطانية تلك الهزيمة الشنيعة بالبرجوازية الاسبانية والبرتغالية بدأ صراع جديد بين الرأسمالية البريطانية والرأسمالية الناشئة في فرنسا وبدأت حرب باردة عنيفة بين الدولتين في عهد لويس السادس عشر ، وكلنا يذكر ان لويس السادس عشر قد أمد جورج واشنطن محرر الولايات المتحدة الاميركية في ثورته ضد بريطانيا بالمساعدات المالية وبالسلح .

وعقب إعدام لويس السادس عشر تحولت الحرب الباردة بين الرأسمالية البريطانية والرأسمالية الفرنسية الناشئة الى حرب ساخنة سالت فيها الدماء انهياراً ، ولم تنته هذه الحرب الا في هزيمة نابليون في معركة « واترلو » . ومن الاشياء التي تلفت النظر وتسرع الانتباه ان الرأسمالية البريطانية استعانت بالبرجوازية التي سبق لها أن هزمتها في حربها ضد الرأسمالية الفرنسية الناشئة . ولقد شاهد

القرن الثامن عشر والتاسع عشر انطلاقات استعمارية اوروبية جبارة فاحتلت هولندا الجزر الكبرى المعروفة اليوم باسم اندونيسيا، واحتلت بلجيكا الكونغو البلجيكي الغني بأشجار المطاط .

وكلنا يذكر المآسي الانسانية التي اقترفها الاستعمار في المستعمرات . فالكونغو البلجيكي مثلاً كان عدد سكانه في بدء الاستعمار البلجيكي يبلغ خمسة وعشرين مليوناً، وقد تدنى هذا العدد خلال ثلاثين سنة من الاستعمار البلجيكي إلى تسعة ملايين نسمة .

وفيما يلي جسدولان يدلان بوضوح على التوسع الاستعماري خلال القرنين التاسع عشر والعشرين .

المانيا		فرنسا		انكلترا		السنة
عدد السكان بالملايين	المساحة بملايين الاميال	عدد السكان بالملايين	المساحة بملايين الاميال	عدد السكان بالملايين	المساحة بملايين الاميال	
—	—	٠,٥	٠,٠٢	١٢٦,٤	?	١٨٣٠ — ١٨١٥
—	—	٣,٤	٠,٢	١٤٥,١	٢,٥	١٨٦٠
—	—	٧,٥	٠,٧	٢٦٧,٩	٧,٧	١٨٨٠
١٤,٧	١,٠	٥٦,٤	٣,٧	٣٠٩,٠	٩,٣	١٨٩٩

أما الجدول الثاني فيرينا التطور الذي طرأ على الاستعمار بين عامي ١٨٧٢ و ١٩١٤ والدول الجديدة التي بدأت تمارس سياسة الاستعمار .

وهذه هي صورته :

المستعمرات				
١٩١٤		١٨٧٢		
نسمة بالملايين	كيلومتر مربع بالملايين	نسمة بالملايين	كيلومتر مربع بالملايين	
٣٩٣,٥	٣٣,٥	٢٥١,٩	٢٢,٥	انكلترا
٣٣,٢	١٧,٤	١٥,٩	١٧	روسيا
٥٥,٥	١٠,٦	٦	٠,٩	فرنسا
١٢,٣	٢,٩	—	—	المانيا
٩,٧	٠,٣	—	—	الولايات المتحدة
١٩,٢	٠,٣	—	—	اليابان
٤٥,٣	٩,٩			بلجيكا وهولندا وغيرهما
٣٦١,٢	١٤,٥			اشباه مستعمرات الصين ، ايران ، تركيا

والآن لننظر كيف يعامل المستعمرون سكان المستعمرات ، وسأقصر مجالي هنا على أفريقيا ، إذ انني لا أملك اية مصادر إحصائية عن المستعمرات الأخرى خارج هذه القارة ، أضف الى ذلك ان هذه الاحصاءات تعبر عن وضع العمال الافريقيين في آخر النصف الاول من القرن العشرين ، وهذا التاريخ له مغزاه بسبب ان الرأسمالية التي تضخمت على حساب المستعمرات قد رفعت من مستوى الاجور بالنسبة إلى مراحلها الاولى .

يتقاضى العامل الاوروبي في اتحاد جنوبي افريقيا من شركات التنقيب عن الذهب حداً أدنى من الأجر يبلغ عشرين شلناً في اليوم ، بينما يبلغ متوسط أجر العامل الافريقي في الشركة ذاتها شلنين وثمانية بنسات . وتقرض غرامة على كل صاحب منجم يمنح الافريقيين اجوراً تزيد على الاجور المحددة وذلك بغية إغرائهم على العمل في منجمه .

ثبت من البحث الذي أجراه مكتب الخدمة الاجتماعية لغير الاوروبيين وشؤون الوطنيين أن متوسط ديون العائلة الافريقية في ضواحي جوهانسبرغ بلغت ٢٠ جنياً و ١٧ شلناً و ٦ بنسات لكل عائلة .

ظهر من الاحصاءات ان الفقر المدقع هو السبب الرئيسي لأمراض سوء التغذية بين الافريقيين في اتحاد جنوبي افريقيا . وقد دلت إحصاءات سنة ١٩٢٩ ان نسبة الوفيات بلغت ٢٩،٢٩ بالالف ، بينما بلغت نسبة الوفيات بين الاطفال ٢٩٦،١١ بالالف ، كل ذلك حدث وشركات التنقيب عن الذهب قد حققت ارباحاً صافية في تلك السنة تجاوزت الخمسين مليوناً من الجنيهات الاسترلينية .

لم يترك من الاراضي التابعة لقبائل يتشوانا في مقاطعة « يتشوانا لاند » والبالغة مساحتها ٢٧٥ ألفاً من الكيلومترات المربعة سوى مئة ألف كيلومتر مربع ، أما المتبقي فقد استولى عليه البيض من الانكليز .

يجب على كل افريقي يعيش في منطقة روديسيا الجنوبية أن يدفع

ضرائب تبلغ نحو عشرين شلناً سنوياً ، يضاف إليها عشرة شلنات عن كل زوجة وخمسة شلنات عن كل كلب يملكه ، وإذا لم يسدد الضريبة في مدى شهر من تاريخ استحقاقها عوقب بغرامة قدرها عشرة جنيهات أو بالحبس مدة ثلاثة أشهر .

يتوجب على كل الأفريقيين الذين ولدوا خارج روديسيا الجنوبية ويريدون دخولها ان يتقدموا بطلب للتصريح لهم بدخولها من إدارة الشؤون الوطنية ، فإذا حصل أحدهم على إذن بالدخول فله الحق في الإقامة مدة لا تزيد عن ثلاثين يوماً للبحث عن عمل . وإذا لم يحصل على عمل حتى انتهاء المدة قبض عليه بجريرة التشرّد ، وألقي به في السجن ، ومن ثم نفى من البلاد .

لا يحق للأفريقيين في روديسيا والساكين في المدن الخروج من منازلهم بين الساعة التاسعة والخامسة صباحاً .

صدق البرلمان البريطاني بأكثرية ساحقة قانوناً يعرف باسم « قانون تسجيل اللوائح » ويسمح هذا القانون للنساء بإنشاء دور البغاء وتقديم التحليلات لعمال المناجم ، ويحق لكل رجل أن يختار امرأة لتعيش معه ، وليس عليه أية مسؤولية مادية أو أدبية نحوها أو نحو أطفاله منها ، إذا أنجب أطفالاً .

يحصل العمال الأفريقيون في زراعة التبغ على أجر قدره ١٢ شلناً وستة بنسات في الشهر .

يملك في روديسيا عشرون ألفاً من الأوروبيين مساحة من الأرض الزراعية تبلغ ٢,٥ مليون فدان انكليزي .

يتقاضى العمال الأوروبيون في مناجم النحاس مرتباً شهرياً يتراوح بين ٤٠ و ٧٠ جنيهاً شهرياً ، بينما يبلغ مرتب العامل الأفريقي جنيهين ونصف الجنيه تقريباً .

يتوجب على كل أفريقي في تنجانيقا يتجاوز الثامنة عشرة من عمره أن

يدفع سنوياً ضريبة قدرها جنيهاً واحداً وخمسة عشر شلناً ، ويبلغ متوسط الدخل الشهري لثل هذا الأفريقي ما يقارب ثلاثة أرباع الجنيه . هذا غيظ من فيض ، ولو أردت ان أعدد جرائم الاستعمار ومخازي المستعمرين في المستعمرات لاستغرقني هذا العمل شهوراً وسنين .

٢ - قانون المزاحمة والمنافسة :

قلت في مطلع بحثي ان الرأسماليين لا يعيشون على دماء الطبقة العاملة ويتغذون بلحوم سكان المستعمرات فحسب ، بل انهم يلتهمون بعضهم بعضاً ايضاً . فكل مشروع صناعي يجد في مثيله من المشروعات الصناعية منافساً له ومزاحماً ، لذلك يسمى بكل ما اوتي من جهد لتصفية هذا المشروع والاستئثار بالزبائن والاسواق ، وذلك كله حياً في اجتناء الارباح . وقد لاحظ « لويس بلان » الاشتراكي الفرنسي خطأ آدم سميث في تقريره بأن المنافسة والمزاحمة تؤديان الى انخفاض في مستوى الاسعار ، فلقد كتب « لويس بلان » عام ١٨٤٠ ينتقد هذه النظرية ويقول :

« ليس قدني الاسعار ، في عهد حرية المزاحمة ، إلا حسنة مؤقتة وهمية خادعة ، فالمنطق الرأسمالي يحافظ على هذه الحسنة ويلزمها ما بقي للتصارع والمنافسة ، وما ان يتغلب أغنى الرأسماليين على أخصامه ويخرجهم من ساح المعركة ، حتى تأخذ الاسعار في الارتفاع . فالمنافسة تؤدي إلى احتكار ، وقدني الاسعار - للسبب نفسه - يؤدي الى ارتفاعها ، وهكذا فان السلاح الفتاك الذي كان يهدد به بعض المنتجين بعضهم الآخر يصبح اداة لانقاذ المستهلكين وسبباً من اسباب يؤسهم وشقاؤهم . »

ونحن اذا ما اردنا ان نفتش عن اسباب جميع الحروب منذ ان عرف التاريخ التنظيم الرأسمالي للمجتمع والدولة فافتنا نراه اسباب كل حرب إلى هذا القانون - قانون المنافسة والمزاحمة . وانني هنا ارى من الفائدة ان أنقل من جديد

تحليلي للأحداث العالمية عقب الحرب العالمية الاولى ، هذا التحليل الوارد في كتابي « الاهداف الاستعمارية وراه مشروع مارشال » ، والصادر عن دار البيقطة العربية بدمشق وذلك من الصفحة ٣١ الى ٤٦ ، والذي قد يساعد القارئ على تفسير اسباب الحرب العالمية الثانية على ضوء قانون المنافسة والمزاومة :

« تعاقبت الشهور والسنون ولمس الرأسماليون الاميركيون ان الرئيس روزفلت قد فشل في تدعيم مركزهم وتوسيع نفوذهم وترويج تجارتهم ، وتبين ان الحل الذي جاء به برطمانج المعروف بـ « نيو ديل » (New Deal) لم يكن سوى مسكن لمرض عضال مزمن . وقابلوا بين الانتاج الاميركي الحالي وقدرته على غمر الاسواق العالمية وإجتهاء الارباح ، وبين الكمية القليلة التي يبيعونها ويصدرونها فتحسروا وتألوا ، واخيراً هدتهم غريزة حب الكسب الى الاسباب الحقيقية التي تقف بينهم وبين تحقيق اهدافهم ، وكان أحد هذه الاسباب هو الحرب اليابانية في الصين ، هذه الحرب التي حالت دون استقرار رؤوس أموالهم فيها واستثمار اسواقها الداخلية الواسعة ، وتجنيد ال ٤٥٠ مليوناً من سكانها في عداد مستهلكي البضائع الاميركية . كما وان نمو الصناعة اليابانية وتقدمها السريع أربح رأسمالي اميركا وبريطانيا ، وتحققوا من ان اليابان إذا بقيت تتابع خطاها في هذا المضمار فستخلق لها مشاكل معقدة وازمات مدمرة لا طاقة لها على تحملها ومواجهتها ، وذلك لان الصناعة اليابانية تمتاز عن الصناعتين الاميركية والبريطانية بعامل هام ألا وهو رخص أجور الالبي العاملة اليابانية ، وهذا مما يجعل تكاليف الانتاج زهيدة وثمنها في الأسواق العالمية رخيصاً ، وبذلك تتمكن البضائع اليابانية من منافسة البضائع والسلع الأميركية في الأسواق العالمية .

وكانت الولايات المتحدة تعلم مدى فقر اليابان في المواد الأولية اللازمة للصناعة ، ولذلك كانت تنتظر الغزوات اليابانية لطرد الانكليز والهلانديين والفرنسيين من مستعمراتهم في المحيطين الهندي والهادي ، بغية ان تحل

اليابان محلم لان إمكانات تلك المستعمرات الدفينة منها والمستغلة كانت تقري المغامرين اليابانيين على احتلالها واستعمارها لضمان مواد الخام والاسواق ، ولهذا فلقد كانت خطة اليابان التوسعية تستهدف تحقيق أمرين ، الأول : تأمين المواد الأولية للصناعة اليابانية عن طريق إحتلال الممتلكات والمستعمرات الهولندية والبريطانية والفرنسية ، أما الأمر الثاني فهو إيجاد الاسواق لتجارها لتمكين صناعاتها من التقدم والنمو ...

وكانت الرأسمالية الأميركية ترقب تقدم الجيوش اليابانية في الصين بقلب واجف خائف ، وكان التناقض المتزايد في صادرات أميركا إلى ذاك القطر يقدم إلى أرباب الصناعات الاميركيين الدليل المادي على إجرام اليابان بحقوقهم وحرمانهم من جزء غير يسير من الارباح التي كان باستطاعتها اجتناؤها فيما لو لم تقدم اليابان على غزو الصين .

وقد اظهر واقع الحال للطبقة المالية الأميركية حدة الكوارث والازمات التي ستزول بها فيما لو تركت اليابان تبتلع الصين حيث خشيت الشركات الاميركية ان تتجه الجيوش اليابانية عقب تصفية الصين إلى ابتلاع ممتلكات ومستعمرات بريطانيا وهولاندا وفرنسا، وهذا مما سيقضي على ملايين الدولارات الموظفة في تلك الممتلكات والمستعمرات ، لذلك أخذت الحكومة الاميركية تمد الصين بالمساعدات المالية والحربية معتبرة الجمهورية الصينية الخط الدفاعي الاول عن مصالحها الحيوية في الشرق الاقصى .

ونشأ ايضاً في القارة الاوروبية منافسان خطران للولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا ، وأعني بهذين المنافسين المانيا النازية وايطاليا الفاشستية ، واتفقت هاتان الدولتان مع اليابان على اقتسام الامبراطوريات المالية الثلاث : بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ، وتوزيع ممتلكاتها ومستعمراتها ومنشآتها الصناعية فيما بينها ، فكان من المتفق عليه ان تصبح الامبراطوريتان البريطانية والفرنسية في افريقيا والشرق الأوسط من نصيب الرأسماليتين الالمانية والايطالية ، أما الامبراطورية الهولندية وممتلكات بريطانيا في جنوبي شرقي آسيا والفيلبين

والصين فكان من المقرر أن تكون حصّة اليابان ، لذلك أصبح الصراع بين ألمانيا واليابان من جهة ، والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى مرتقبا ومنتظرا .

وكانت رؤوس الاموال الألمانية قد استطاعت قبل نشوب الحرب بأعوام قلائل ان تستعيد مكانتها السابقة في البلقان ودول وسط اوروبا وأميركا الجنوبية ، وقد مكن ألمانيا مركزها الجغرافي في قلب اوروبا وقوقها العسكرية الضخمة ونهضتها السياسية من ان تعقد معاهدات تجارية مع معظم دول اوروبا ، وهذه المعاهدات خلقت للدولتين الاوروبتين بريطانيا وفرنسا المشاكل والازمات ، فأقفلت معظم دول البلقان اسواقها في وجه السلع البريطانية والفرنسية وحق الاميركية .

واستطاعت التجارة الألمانية ان تتسرب عن طريق ايطاليا الى البلدان الواقعة في آسيا وافريقيا ، وكان لجودة السلع الألمانية والسمعة التجارية الطيبة التي تتمتع بها هذه الدولة أثر بالغ في ترويج التجارة الألمانية ، واتبعت ألمانيا خلال الحكم النازي طريقة المفاضة والمبادلة في تجارتها الخارجية ، وجاء خروجها عن قاعدة الذهب كأساس لتقدها ضربة شديدة نزلت بالتجارة الدولية ، فكانت ألمانيا تستورد ما تشاء من البضائع والسلع ، وتسترد أثمان مستورداتها بضائع استهلاكية ذات دورة واحدة ، وكثيراً ما كان يحدث أن تدفع ألمانيا الاسبرين والايتهرين ثمناً لوارداتها من البترول والغذاء الخ ...

وهذا النوع من المعاملات التجارية المدعومة بالقوة السياسية والتهديد العسكري جعل من معظم جارات ألمانيا زبائن وعملاء لها ، وكادت ألمانيا خلال الحكم النازي تحتكر معظم الاسواق الاوروبية ، فسيطرت شركاتها الكهربائية على معظم دول اوروبا وتدنت مقادير الصادرات الانكليزية والفرنسية والاميركية الى اوروبا الى ما يقارب النصف ، لهذا أصبح القضاء على ألمانيا أغلى ما للامبراطوريات المالية الثلاث من أمنية .

اما ايطاليا الفقيرة ذات الصناعة المفتعلة والهزيلة فلقد حاولت ان ترفع ظلم الطبيعة عنها باتباع خطط توسعية وتنفيذ برامج استعمارية . وكانت الولايات المتحدة لا تكترث او تعير أدنى التفات لحركات ايطاليا ومظاهراتها السياسية لانها كانت متيقنة من ان هناك استحالة مادية تحول دون تحول ايطاليا الى دولة صناعية وذلك لانعدام المواد الاولية والطاقة المحركة فيها ، لهذا كان من الصعوبة بمكان ان تتمكن ايطاليا من المنافسة والمزاخمة في الاسواق العالمية لان انتاجها سيكون باهظ التكاليف ، لان معظم الصناعات الايطالية كانت تدار بالفحم المستورد من المانيا وانكلترا ، وبالبترول المبتاع من الشركات الاميركية الانكليزية الهولندية .

غير ان الرأسمالية الايطالية وجدت انها اذا استطاعت ان تترث الامبراطوريتين البريطانية والفرنسية وان تحل مكانها في استعمار ممتلكاتها ومستعمراتها فقد تستطيع ان تدعم مركزها الصناعي . فاقدمت ايطاليا في ساعة طيش ولحظة عاقبة على إحتلال الحبشة ضاربة بتهديدات عصبة الامم وعقوباتها الاقتصادية .

وقد يتساءل القارئ لماذا خذلت عصبة الامم الحبشة ؟

ان سبب خذلان عصبة الامم للحبشة يعود الى ان الحكومتين البريطانية والفرنسية قد وجدتا ان مغامرة ايطاليا في الحبشة مغامرة فاشلة من الوجهة الاقتصادية ، كما وان احتلال الحبشة قد عجل بحلول الازمة الاقتصادية في ايطاليا ، فلقد بلغ العجز السنوي في موازنة الحكومة الايطالية لعام ١٩٣٥ ثلاثة مليارات « لير » وهبطت قيمة الذهب المخزون في ايطاليا والاسهم والسندات المعتبرة قيمتها ذهباً من ١١٠٦١ مليون « لير » عام ١٩٢٨ الى ٤٠٢٢ مليون « لير » في اذار من عام ١٩٣٧ (وهذه الاحصاءات مأخوذة عن النشرة السنوية للاحصاءات الصادرة عن عصبة الامم السابقة ، لعام (١٩٣٧ - ١٩٣٨)) وعلينا ان لا ننسى اسقاط ثلث قيمة المبلغ المتبقي بسبب تدهور قيمة اللير الحقيقية الى ما يقارب ثلثها . كما ان صناعة السيارات الايطالية التي كانت

الاولى عام ١٩٢٢ من حيث الطاقة الانتاجية ، تدنت هذه الطاقة الى ما يقارب الثلثين عما كانت عليه عام ١٩٢٧ إذ انتجت في ذلك العام ٦٥ ألفاً من السيارات بينما لم تتمكن في عام ١٩٣٦ من انتاج سوى ٤٨ الف سيارة كما وان قيمة الصادرات الايطالية الشهرية هبطت من ١٣٠٢ مليون لير عام ١٩٢٧ إلى ٤٥٥ مليون لير عام ١٩٣٦ أضف الى ذلك ان ايطاليا لم تكن في تلك السنة وفي السنوات التي اعقبها تملك اي نقد اجني او اعتمادات في بنوك اجنبية .

هذه الازمة الاقتصادية الخائقة دفعت بالرأسمالية الايطالية الفقيرة الى المقامرة والمغامرة في خوض حرب عالمية قد تعود عليها في حالة النصر ببعض الفوائد والارباح .

اما الولايات المتحدة فلم يكن لديها اي سبب لمحاربة ايطاليا واذلالها في حلبة الكفاح العالمي ، لان اميركا كانت تدرك ان الحرب مع ايطاليا هي حرب عديمة الفائدة وغير مجدية ، فالولايات المتحدة لم تكن تخشى مزاحمة ايطاليا الصناعية والتجارية كما كانت تخشى مزاحمة اليابان والمانيا في هذين الحقلين . وكلنا نذكر محاولات الرئيس روزفلت لتجنيب ايطاليا دخول الحرب العالمية الثانية ولكن المانيا التي كانت تفتش لها عن حليف مها كان نوعه او قوته رحبت بايطاليا ترحيباً حاراً ، فارتمت الفاشستية في احضان النازية وتعانقتا والعسكرية اليابانية ، واعلنت الرأسماليات الالمانية والايطالية واليابانية الحرب على الامبراطوريات المالية الثلاث اميركا وبريطانيا وفرنسا مدفوعة بقانون المنافسة والمزاحمة على الاسواق والمرايح .

٣ - قانون التمرکز على الانتاج وحصره

إن قانون المنافسة الذي يدفع بالشعوب والأمم إلى خوض غمرات الحروب من أجل الرأسمالية والرأسماليين ، يدفع ايضاً بالشركات الى الاصطراع والصراع بعضها ضد بعض ، إذ تحاول الشركات الكبرى تصفية الشركات

الصغيرة او المتوسطة وذلك إما عن طريق ابتلاعها بشراء اكثرية اسهمها او عن طريق منافستها منافسة شديدة بحيث تؤدي بالتالي إلى افلاس الشركات الصغيرة او المتوسطة ومن ثم انهيارها انهياراً كلياً كاملاً .

وعن قانون التمرکز والقدره على الانتاج وحصره تنشأ الاحتكارات في كل اشكالها من شركات متحدة (Corporation) وموحدة (Trust) وقد لخص الاقتصادي الالماني هلفردنج المزايا الاساسية للنظم الاحتكارية بالنقاط التالية :

١ - تسوية تقلبات التجارة وبذلك يكفل للمشروعات نصيباً من الربح اشد ثباتاً واستقراراً .

٢ - يترتب على هذا النظام القضاء على المنافسة والمزاحمة في الاسواق الداخلية والخارجية .

٣ - يعمل في الامكان اجراء التحسينات الفنية مما يؤدي الى اجتثناء مزايا أعلى مما تحصل عليه المشروعات الخالص (غير المتحدة والموحدة) .

٤ - يزيد من قوة مركز المشروعات المتحدة والموحدة لآزاء زميلاتها الخالص ويجعلها أقدر على المنافسة في فترات الكساد الخطيرة حينئذ لا يتمشى هبوط اسعار المواد الأولية مع هبوط ثمان السلع المصنوعة .

وتلعب المصارف الكبرى دوراً كبيراً في تحقيق اغراض الشركات الموحدة والمتحدة لتصفية الشركات الخالص إذ ان المصارف تعتمد في اوقات الازمات إلى منع القروض عن الشركات الخالص أولاً ، وتقوم بمطالبة هذه الشركات بتسديد ما عليها من ديون ، وبهذا تدفع بالشركات الخالص إلى الافلاس والانهيار ، وافلاس مثل هذه الشركات الخالص يؤدي إلى افلاس المصارف الخالص ايضاً ، فالشركات المتوسطة والصغيرة تتعامل عادة مع المصارف المتوسطة والصغيرة ، لذلك فان افلاسها يؤدي حتماً إلى افلاس المصارف التي تتعامل معها ، وبهذا يتركز المال العامل في المصارف المتحدة والموحدة كما تتركز المشروعات الصناعية في الشركات المتحدة والموحدة . وكثيراً ما تعتمد الشركات المتحدة والموحدة

الى افتعال الازمات الاقتصادية بغية تحطيم الشركات الخالص ، إذ تقدم الشركات
الموحدة والمتحدة على إغراق السوق بالسلع والبضائع لفترة معينة ، وهذه العملية
تقود الى إنخفاض سعر السلعة الى ما دون قيمتها الحقيقية ، وهذا ما يعني الخسارة .
ولما كانت الشركات الخالص لا تستطيع احتمال الخسائر لفترة زمنية طويلة ، ولما
كانت ابواب المصارف الكبرى مغلقة في وجهها للاستدانة والقروض ، لذلك
مرعان ما تقلس هذه الشركات الخالص وتخلي الطريق امام الشركات الموحدة
والمتحدة لتستأثر بالاسواق والمزايا . أضف الى ذلك ان الشركات الموحدة
او المتحدة والتي توظف الآف العمال والتي تعتمد الى وسيلة للانتاج الغزير
(Mass Production) فتتغذو - نتيجة لوسيلة الانتاج الغزير تكاليف صنع السلعة -
اقل بكثير من تكاليف السلعة التي تصنعها الشركات الخالص ، والتي لا تمكنها
طاقات رأسمالها من اللجوء الى وسيلة « الانتاج الغزير » ، وهذا ما يعني استيلاء
الشركات الموحدة او المتحدة على زمام المبادرة في الاسواق وإغلاق الاسواق
امام منتجات الشركات الخالص .

وكلنا يذكر اثر الاحتكارات الرهيب المدمر خلال الأزمة البترولية بين
ايران وشركة للبترول « الانغلو ايرانية » فقبل ان يقدم مصدق رئيس وزراء
ايران على تأميم البترول الايراني كانت ايران الدولة الاولى المنتجة للبترول في
الشرق الأوسط ، ولكن ما كاد مصدق يؤمم البترول الايراني حتى غدت ايران
الدولة الأخيرة في انتاج البترول في هذه المنطقة ، وسبب ذلك ان الشركات
البترولية الكبرى من اميركية وبريطانية وهولندية وفرنسية تكون اتحاداً
يحتكر السوق العالمية احتكاراً كلياً شاملاً ، ويقوم هذا الاتحاد بمراقبة السوق
العالمية ودراسة احتياجاتها المتزايدة من البترول ، وهو يوازن دائماً بين التوسع
في انتاج البترول وبين حاجات السوق بحيث لا يطغى الانتاج على حاجة السوق
فينخفض السعر العالمي للبترول ، لذلك وعندما اقدم مصدق على تأميم البترول في
ايران وجه الاحتكار البترولي الغربي ضربة رهيبة اليه ، وجاءت هذه الضربة
متمثلة في إغلاق السوق الدولية في وجه البترول الايراني ، فلم تستطع ايران ان

تبيع سوى كميات جد قليلة من بترولها ، وقدنى انتاج ايران من البترول بما يقارب ٤٥ مليون طنّاً سنوياً الى ما يعادل الثلاثة ملايين طنّاً ، ولكي تموض الشركات الكبرى النقص من البترول الذي نشأ عن تأميم مصدق للبترول أقدمت على التوسع في انتاج البترول في كل من المملكة العربية السعودية والكويت والعراق . ولذلك فنحن إذا ما درسنا الزيادة في انتاج هذه البلدان من البترول نكتشف ان هذه الزيادة تعادل كمية البترول الايراني المنتج قبل التأميم مضافاً اليها حاجات السوق الدولية المتزايدة .

ويرى الاشتراكيون ان التنظيم الرأسمالي اذا ما تابع سيطرته على الاقتصاد العالمي فانه ستنحكم شركة موحدة واحدة بمقدرات العالم الاقتصادية ، وهذا التحكم والسيطرة يفرضه احد القوانين الهامة الذي تتمشى وفقه الانظمة الرأسمالية في العالم ، وأعني به قانون التمرکز والقدرة على الانتاج وحصره . لذلك كان الاشتراكي الفرنسي «لويس بلان» جد مصيب عندما قال ان المنافسة والمزاحمة لا تقودان إلى تخفيض الاسعار ، بل انما تقودان الى الاحتكار والنظم الاحتكارية ، وان تخفيض الاسعار هو حالة وقتية لاعادة رفعها .

٤ - قانون السعر المنخفض

يقول هذا القانون بالمحافظة على الارباح مع انمائها ، وذلك عن طريق التوسع الميكانيكي في الانتاج وتقليص استعمال اليد العاملة . اما ما ينشأ عن انخفاض في تكاليف السلعة عن طريق تقليص الاجور الناشئ عن الاستعاضة بالآلة عن العمال فهو الذي يؤدي الى تخفيض سعر السلعة ، وبذلك يحافظ الرأسماليون على ارباحهم دون ان يؤثر تخفيض سعر السلعة على مقادير الارباح التي تدخل عليهم ، وهذا كله بسبب ان المشكلة قد حلت عن طريق تقليص اليد العاملة ، وبالتالي الانحدار بالتكاليف عن طريق

الاستغناء عن دفع الاجور نعمال حلت الآلة محلهم . اما الآلة الجديدة فانها تتحول الى رأس مال ثابت ليسد ثمنه بعد مضي وقت قليل من ادخاله حقل الانتاج .

ولنضرب الآن مثلاً على ذلك :

لنقل ان هناك رجلاً يملك مصنعاً لصنع الاحذية ويعمل في هذا المصنع عشرون عاملاً اجر العامل خمس ليرات سورية ، وينتج عشرة ازواج من الاحذية يبيع الزوج الواحد منها بعشرين ليرة سورية ، وبربح قدره خمس ليرات سورية في الزوج الواحد . من هذا المثل ينشأ ما يلي :

اجرة العمال : ١٠٠ ليرة سورية

ثمن المواد الاولى : ٢٥٠ ليرة سورية

الربح : ٥٥٠ ليرة سورية

بذلك يكون المجموع : ٤٠٠ ليرة سورية

ولفرض ان صاحب هذا المصنع استورد آلة لصنع الاحذية وهدفه على الاقل سيكون المحافظة على ربحه الذي اعتبرناه خمسين ليرة سورية ، وقد ادت هذه الآلة الى الاستغناء عن ١٨ عاملاً وأبقت على عاملين لإدارتها ، ولنعبر ان هذين العاملين باعتبارهما عاملين فنيين سيتقاضيان اجراً مضاعفاً للأجر الذي كان يتقاضاه العاملان في الورشة غير الآلية ، عندئذ تصبح العملية على الشكل التالي :

أجرة العاملين + استهلاك الآلة (مقدراً بخمس ليرات) = ٢٥٠ ليرة

ثمن المواد الاولى ولنعبر هذا الثمن لم يتغير = ٢٥٠ ليرة

الربح الثابت لصاحب العمل = ٥٥٠ ليرة

مجموع تكاليف صنع العشرين زوجاً من الاحذية = ٣٢٥

سعر الحذاء المحفّض = $\frac{٣٢٥}{٢٠}$ = ١٦,٢٥ ليرة سورية إذن يكون قد خفض

سعر الزوج من الحذاء ٣,٧٥ ليرة سورية ، وذلك دون ان يتأثر ربح صاحب مصنع الاحذية ، إذ انه حافظ على مستواه الذي هو خمسون ليرة سورية ، كما

وأنة قد حقق بالإضافة الى ذلك كسباً آخر هو اغناء رأس ماله العامل الذي هو الآلة في هذا المثال .

مما ورد يتضح ان الآلة تشكل عاملاً أساسياً في تحقيق السعر الخفض بغية الربح .

ومن الجدير بالذكر ان الرأسماليين في مراحل الصناعة الاولى كانوا يعتمدون الى تطبيق هذا القانون عن طريق تنفيذ المبدأ القائل :
« اكبر قدر من ساعات العمل لقاء أقل قدر من الأجور » .

لا شك ان القاريء الكريم يدرك مما اورده من شرح للقوانين الأربعة التي تنظم نشاطات النظام الرأسمالي مدى التناقض الحاد الذي يكتنف هذا النظام ، ولا بد لهذه المتناقضات من القضاء عليه ، وذلك اذا تاهضت الشعوب والأمم بعزم واخلاص بمحاولات الرأسماليين اليوم للقضاء على العالم بواسطة حرب هيدروجينية لا تبقي ولا تذر .

د - محاولات لكنها فاشلة

تشعر الانظمة الرأسمالية اليوم بدنو اجلها المحتوم ، ولذلك فهي تحاول ان تمنع او تؤخر على الاقل المصير القاتم الرهيب الذي ينتظرها على ايدي الشعوب ، لذلك فانها تلتستر احياناً تحت الاشتراكية المزيفة والمحاولات الاصلاحية الفاشلة . وكان اول « مصلح » (اذا سلمنا ان الرأسمالي يمكن ان يكون مصلحاً) هو هنري فورد صاحب مصانع السيارات المشهورة ، اذ لمس هذا الصناعي الاميركي ان سير الصناعات ونموها مرتبط ارتباطاً مباشراً بالقدرة الشرائية للفرد ، لذلك استن هنري فورد دستوراً يقول برفع مستوى الاجور وتخفيض ثمن السلعة وتحقيق الارباح على حساب التوسع في الانتاج . لذلك أقدم فورد بصورة مفاجئة

على رفع اجور عماله ١٠٠ ٪ وكانت هذه المحاولة التي قام بها هنري فورد تعتبر بمثابة جنون مطبق لدى زملائه من الرأسماليين، لكنها كانت محاولة ناجحة ارغمت الكثيرين من زملائه على اتباعها ومن ثم تعميمها . ولكن هل استطاعت هذه المحاولة ان تجنب الولايات المتحدة الاميركية الازمات ؟ ان مبدأ السعي لتحقيق الربح كان ابدأ المسيطر المتحكم، وهذا المبدأ سرعان ما يهدم كل محاولة اصلاحية . فالتوسع بالانتاج يقتضي تعميم الآلة في الصناعات ، وتعميم الآلة يؤدي الى طرد العدد الفقير من العمال، وطرد مثل هذا العدد يؤدي الى انتشار البطالة، وانتشار البطالة يؤدي الى هبوط القدرة الشرائية ، وهبوط القدرة الشرائية يؤدي بالتالي الى الكساد .

وهكذا فان عمل هنري فورد ذاك يعتبر كعمل الثعلب الذي اراد ان يقسم قالب الجبن بالتساوي بين الهرتين مستعملاً الميزان، فكان ان الثعلب لم يستطع ان يوازن بين قطعتي قالب الجبن، لذلك كان يعتمد الى تحقيق هذا التوازن آنأ بالتهام جزء من هذه القطعة، واخرى بالتهام جزء آخر من القطعة الثانية، وكان الثعلب خبيثاً لاذ انه كان يلتهم دائماً على صورة تجعل القسمة بين الهرتين لا يمكن ان تتساوى او تتوازن . وكانت النتيجة ان التهم الثعلب كامل قالب الجبن دون ان يستطيع تحقيق التوازن بين قطعتيه، وهذا هو حال الرأسمالية .

وجاء عقب هنري فورد الرئيس فرانكلين ديلا نوروزفلت ليحل الازمة الاقتصادية الآخذة بخناق الأمة الاميركية وجاء بمشروعه المعروف باسم «نيو ديل» (Newdeal) ، واقدم ورفيقه هاري هوبكنز على اعتماد سياسة الصدمة والاحسان بغية التفريغ من الازمة فخصص ٣٣٠٠ مليون دولار للتمهير وال عمران . وزاد الدين الوطني بنسبة ٥٠ ٪ وقام بكهرية سد وادي «التنسيه» وخفض قيمة الدولار ٤٠ ٪ كي يمكن الفلاحين والمشروعات من تخفيض ديونها الحقيقية الى نسبة ٦٠ ٪ .

ولكي يوازن روزفلت بين الانتاج والاستهلاك استصدر القانون المعروف باسم «النقاهة الصناعية الوطنية» (National Industrial Recovery)

وحدد هذا القانون حداً أدنى للاجور ، ومعدلاً اعلى لساعات العمل ، فتدنت ساعات العمل من ٥٦ ساعة في الاسبوع عام ١٩٢٩ الى ٢٥ ساعة في الاسبوع عام ١٩٣٦ ، وإباح لقاء ذلك انشاء التروستات الذي كان يحرمه القانون المعروف باسم قانون « كلايتون » وذلك بغية عدم السماح بالمنافسة والمضاربة ، وسمح للشركات بان تعقد اتفاقات خاصة فيما بينها وبين موزعي البضائع لضمان استقرار في الاسعار ، ولكن هل استطاع روزفلت ان يحل الازمة حلاً جذرياً ؟ ان الاحصاء التالي الوارد في كتاب « المشاكل الاقتصادية الاميركية » ليظهر مدى « النجاح » الذي لاقاه روزفلت ومشروعه « نيوديل » :

كان عدد العاطلين عن العمل عام ١٩٢٩ والمسجلين في النقابات يبلغ ١٣,٨ مليون عامل انخفاض عددهم عام ١٩٣٩ الى ١٠,٦ .

ويأتى هتلر وموسوليني من بعده ويعمدان الى سياسة إقتصاد الدولة لمعالجة مشا كل بلادها الاقتصادية ، ولكن الى اين ينتهي بها المطاف ؟ الى الحرب ، الحرب العالمية الثانية التي تدخلها الولايات المتحدة الاميركية ففتتلاشى في أميركا البطالة ، ويهبط فجأة عدد العمال العاطلين عن العمل من ١٠,٦ مليون عامل عاطل عن العمل عام ١٩٣٩ إلى صفر مليون عامل عاطل عن العمل عام ١٩٤١ . لا سبيل للرأسمالية اذن غير الحرب لتحقيق السلام بين المتناقضات التي تكتنف جوهرها . وعلى الشعوب ان تدفع الدماء والدموع والعرق لاحلال السلام بين المتناقضات في النظام الرأسمالي .

واليوم نرى الولايات المتحدة الاميركية تقبني شتى المشاريع : من مشروع مارشال ، الى النقطة الرابعة ، الى مشروع ايزنهاور ، الى مشروع المساعدات والمنح الاميركية للدول « الصديقة » ، وذلك كله بغية الإبقاء على دوران عجلات الآلة في الولايات المتحدة وتجنب العمال البطالة والبضائع الاميركية الكساد .

ولكن هل نجحت كل هذه المشروعات ؟ ان الاحصاءات الأخيرة تقول بأن عدد العمال المتعطلين عن العمل قد تجاوز الخمسة ملايين عامل . فهل ستفجر

الرأسمالية وتطتاير شظاها وتصبح هباء منثوراً؟ ام ان الرأسمالية كعادتها ستفجر هذا العالم وتحيله الى مقبرة للبشرية ؟ ان الشعوب والامم الواعية وحدها تستطيع ان تجيب على هذا السؤال .

د - احتكار واحد :

قلنا فيما تقدم ان قانون المنافسة ينظم علاقات المشروعات بعضها ببعض على اساس المزاوجة على الاسواق الداخلية ، ويدفع بالتالي بالدول ذات الانظمة الرأسمالية الى الصراع والحروب بعضها ضد بعض بغية الاستئثار بالمستعمرات التي تؤمن لها اسواقاً خارجية ومواد اولية . غير اننا نلمس اليوم ونرى بام أعيننا ان معسكراً واحداً ينتظم جميع الدول الرأسمالية تقريباً واعني بهذا المعسكر ، المعسكر الغربي ، وأنه لا أثر لخلافات جوهرية بين اعضاء هذا المعسكر . وقد رأينا دول المعسكر الرأسمالي جميعاً تعقد بينها الأحلاف العسكرية كحلف الأطلسي ، وميثاق بغداد ، وحلف جنوبي شرقي آسيا ، وغيرها من الأحلاف الاقتصادية والسياسية والثقافية ، فهل سبب هذا الوفاق بين الانظمة الرأسمالية في البلدان الغربية يعود اولاً واخيراً إلى خوف هذه البلدان من اجتياح جيوش المعسكر الاشتراكي لبلادها ؟

انني أرى ان هذا ليس بالسبب الجوهري الوحيد الذي يدعو هذه البلدان الرأسمالية الى تناسي خلافاتها ونبذ قانون المنافسة ، هذا القانون الذي يعتبر قانوناً جوهرياً يسير بموجب منظومه النظام الرأسمالي في كل بلد وقطر ، بل ان هناك سببا جوهرياً آخر وهو ان العالم الغربي بمجموعه وبكل ما يملك من مشروعات وشركات قد اصبح « تروست » اميركيا واحداً وشركة اميركية موحدة واحدة .

لقد اشار الاشتراكي الفرنسي « لويس بلان » الى ان قانون المنافسة يؤدي حتماً إلى قانون التمرکز والاحتكار ، وان الشركات في الدول الرأسمالية تصفي القوة منها الضعيفة ، وهي تتجه وفق هذا القانون لتصبح أخيراً بمجموعها شركة موحدة (تروست) واحدة . وهذه الحقيقة تنطبق على الدول الرأسمالية كما تنطبق على الشركات في الدولة الرأسمالية ايضاً .

ف عقب الحرب العالمية الثانية خرجت جميع الدول الرأسمالية من بريطانيا وفرنسية وهولندية والمانية ويابانية وبلجيكية وغيرها ، مفلسة مدينة . فبريطانيا وحدها كانت مدينة للولايات المتحدة وللعالم باكثر من عشرين ملياراً من الجنيهات الاسترلينية ، وعمدت بريطانيا نتيجة لديونها الهائلة هذه الى اتباع نظام شديد من التقنين ببقية موازنة ميزان مدفوعاتها ، غير ان هذه التدابير القاسية لم تفلح إذ كتبت جريدة « الايكونومست » في عددها الصادر بتاريخ ٢٠ كانون الثاني عام ١٩٤٦ مقالاً قالت فيه ان الديون البريطانية تتزايد يوماً بعد يوم ، وان ميزان تجارتنا الخارجية في عجز مستمر ، لذلك اضطرت بريطانيا الى بيع الكثير من شركاتها العاملة في الخارج فباعت في ٦ تشرين الاول سنة ١٩٤٥ جميع ما تملك من استثمارات في الصناعات الكندية بمبلغ قدره مليار دولار ، ومن ثم باعت للمكسيك شركة الخطوط الحديدية بمبلغ عشرة ملايين دولار ، وذلك بتاريخ العشرين من ايار ١٩٤٦ . وفي الثالث من ايلول عام ١٩٤٧ اعلن رئيس الجمهورية المكسيكية ان الاتحاد جمهوريات المكسيك قد ابتاع من بريطانيا وهولندا آبار الزيت المكسيكي بمبلغ ٢٥٠ مليون دولار ٣ .

واضطرت بريطانيا تحت ضغط الازمة الخانقة التي كانت تعانيها ان تقدم على عمل لا مثيل له في تاريخها إذ أنها باعت في ١٥ أيلول عام ١٩٤٧ الى البنك

١ (التقرير الاقتصادي لهيئة الامم المتحدة لعامي ١٩٤٥ - ١٩٤٧ صفحة ٢٩٨ .

٢ (التقرير الاقتصادي لهيئة الامم المتحدة لعامي ١٩٤٥ - ١٩٤٧ صفحة ٣٠٩ .

٣ (التقرير الاقتصادي لهيئة الامم المتحدة لعامي ١٩٤٥ - ١٩٤٧ صفحة ٣٤٥ .

الأميركي المعروف باسم « فيدرال ريزرف بنك أوف نيويورك »

(Federal Reserve Bank of New York)

ذهباً من احتياطياتها بقيمة مئة مليون دولار^١ . وفي ١١ تشرين الاول عام ١٩٤٧ طلبت بريطانيا من اتحاد جنوبي افريقيا قرضاً قدره ثمانون مليوناً من الجنيهات الذهبية فاجيبت إلى طلبها^٢ ، أما فرنسا فلم تكن حالها باحسن من حال بريطانيا، فلقد اعلن رئيس الوزارة الفرنسية في جلسة البرلمان الفرنسي المنعقد بتاريخ ١٩ أيار^٣ عام ١٩٤٧ ما ترجمته بالحرف الواحد :

« ان العجز في ميزان المدفوعات الفرنسية يبلغ ٩٩٠ مليون دولار، وان تلافيه يقتضينا استنزاف ثلثي الذهب المخزون في بنك فرنسا . واخيراً تبين بجلء ووضوح أن الدولة الوحيدة التي كسبت الحرب وجنت منها الفوائد الطائلة والمرباح الضخمة كانت الولايات المتحدة الاميركية وحدها ، اذ قفز انتاجها الصناعي من ١٠٠ ٪ عام ١٩٣٧ إلى ٢١٢ ٪ عام ١٩٤٣ اما انتاجها الزراعي فقفز من ١٠٠ ٪ عام ١٩٣٧ إلى ١٢٨ ٪ عام ١٩٤٤ وقفزت صادراتها من ٣٣٦٠ مليون دولار عام ١٩٣٧ إلى ١٤٥٤٠ مليون دولار عام ١٩٤٤ (هذا الاحصاء وارد في النشرة السابعة للمالية والاحصاء الصادرة عن هيئة الامم المتحدة في شهر تموز سنة ١٩٤٨) وامتثلت قلعة « نوكس » بذهب الامم الاوروبية ، وهنا ادرك الرأسماليون الاميركيون ان الفرصة قد حانت لهم لكي يسيطروا على الاقتصاد الاوروبي ، ويمتلكوا معظم المشروعات الاوروبية ، وان يجعلوها احتكاراً اميركياً واحداً ، وعقدوا العزم على ألا يقترفوا الخطيئة ذاتها التي اقترفها الرئيس « هربرت هوفر » عقب الحرب العالمية الاولى ، تلك الخطيئة التي مكنت الدول الاوروبية من إعادة بناء اقتصادها دون ان تشترك الرأسمالية

١ (التقرير الاقتصادي لهيئة الامم المتحدة لعامي ١٩٤٥ - ١٩٤٧ صفحة ٣٤٦ .

٢ (التقرير الاقتصادي لهيئة الامم المتحدة لعامي ١٩٤٥ - ١٩٤٧ صفحة ٣٤٨ .

٣ (التقرير الاقتصادي لهيئة الامم المتحدة لعامي ١٩٤٥ - ١٩٤٧ صفحة ٣٣٤ .

الاميركية في ملكية المشروعات الاوروبية وتوجيهها. وبدأ الرأسماليون الاميركيون يطالبون بزعامة الدول الرأسمالية الأخرى ، ومعنى الزعامة هنا امتلاك قدر « كبير » من الاسهم في الشركات الاوروبية ، فنشرت جريدة « نيويورك تايمس » في عددهما الصادر في ١٢ آذار عام ١٩٤٧ مقالا جاء فيه :

« لقد انتهى عصر السياسة الانفصالية وحل محله عصر تحمل الولايات المتحدة الاميركية لمسؤولياتها الصالحة . إن حكومتنا تلك اليوم اسطولا بحريا أضخم عدداً وعدداً من جميع ما اجتمع للعالم من اساطيل ، وبلادنا القوة الجوية الكبرى والقواعد البحرية والجوية الموزعة على جميع انحاء العالم ، ويدها سر القنبلة الذرية ، وموازنتها الحربية أضخم موازنة عرفها العالم .

ووقف المستر تشرشل في مجلس العموم البريطاني يؤين الامبراطورية البريطانية الغاربة بخطاب القاء في ٧ آذار عام ١٩٤٧ ونشرته جريدة « التيمس » ويقول :

« إننا نشهد اليوم بقلوب تنفطر كمدأ وأسى زوال الامبراطورية البريطانية وأقول نجمها المتألق مجدداً . »

وكان المستر ايمري وزير المستعمرات البريطانية في وزارة المحافظين قد سبقه الى نعي الامبراطورية البريطانية مهاجماً الاساليب الاميركية الرامية الى تصفية الامبراطورية حيث قال ^١ :

« ان النظام والوسائل التي تتبعها حكومة الولايات المتحدة تهدف الى تمكين فائض الانتاج الاميركي من غزو العالم وتوطيد سلطان ارباب المال الاميركيين وهذا مما سيعود على العالم بالفوضى وعدم الاستقرار وخاصة على تلك البلاد التي تمتلك وحدات اقتصادية محدودة النشاط وسيكون من نتائج السياسة

(١) مجلة الشؤون الخارجية (اميركية) عدد تموز عام ١٩٤٧ صفحة ٥٩٢ .

الاميركية [انعدام التعاون بين الدول لتحقيق مصالحها المشتركة] .

غير ان الرأسمالية البريطانية كانت أضعف من ان تصمد امام اجتياح الرأسمالية الاميركية الرهيب لمشروعاتها ولاسواقها، لذلك استسلمت لها استسلاماً كلياً وأصبحت جزءاً بسيطاً من الاحتكار الاميركي ، ولم تجدد تحذيرات اللورد « ولتون » زعيم حزب المحافظين في مجلس اللوردات قتيلاً ، فلقد نشر المذكور مقالاً في جريدة « التيمس » اللندنية وفي عددها الصادر في ٢٤ كانون الثاني عام ١٩٤٧ ما ترجمته بالحرف الواحد :

« لقد كان مشروطاً في المفاوضات التي دارت بين الولايات المتحدة الاميركية وبين بريطانيا العظمى أن تمنح بريطانيا اميركا المركز التجاري الممتاز في الامبراطورية البريطانية ، وهذه الشروط لا تشكل خطراً شديداً على مصالحنا فيما لو انتهت المفاوضات وفق ما نشتهي ونريد . وعلى حكومة العمال ان لا تغريها اكوام الذهب ومليارات الدولارات على التنازل عن مركز بريطانيا التجاري في الامبراطورية » .

ويستطرد اللورد « ولتون » قائلاً :

« اننا نؤمن بضرورة اجراء تعديلات اساسية على موقفنا السابق في التجارة الدولية ، ولكن اليوم الذي نتنازل فيه عن امتيازاتنا التجارية داخل بلادنا وامبراطوريتنا سيكون اسوأ يوم يمر في حياتنا الاقتصادية والسياسية . اننا اذا سمحنا لاية حكومة ، مهما كانت صداقتها لنا ، بان تقلمي علينا شروطها وتحدد لنا السياسة الاقتصادية التي يجب ان نتبعها ، فعندئذ نكون قد وقعنا فريسة سهلة لاصعب ازمة مادية ومعنوية شهدها تاريخنا القديم والحديث » .

ولكن تحذيرات اللورد « ولتون » ودموع المستر تشرشل ، ونعيب المستر ايمري وغيرهم من الشخصيات البريطانية لم تبدل او تغير شيئاً في فحوى قانون المنافسة الذي يحكم النظام الرأسمالي ، ويحول العالم الرأسمالي كله الى احتكار واحد ، إذ ان بريطانيا وحكومة العمال وقعت على اتفاقات مشروع مارشال ، هذه الاتفاقات

التي جعلت الاقتصاد الاوروبي ذليلاً للاقتصاد الاميركي وتابعاً له ، فلقد ورد في الفقرة الاولى من المادة الخامسة من الاتفاق الموقع بين الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا بموجب مشروع مارشال ما ترجمته بالحرف الواحد :

« على حكومة المملكة المتحدة (بريطانيا) ان تسهل نقل المواد الأولية وغيرها الى الولايات المتحدة الاميركية ، وخاصة تلك المواد المنتجة في المملكة المتحدة والتي قد ترغب الحكومة الاميركية في استيرادها ، وعلى حكومة المملكة المتحدة ان تقبل شروطاً معقولة للبيع والتبادل وإلى ما غير ذلك » .

ولكي تسيطر الرأسمالية الاميركية على الاقتصاد البريطاني سيطرة كاملة وتوجهه وفق مصالحها ورغباتها نصت الفقرة الثانية من المادة ذاتها على ما يلي :

« على حكومة المملكة المتحدة ان تتخذ الاجراءات والتدابير لتنفيذ احكام الفقرة الاولى من المادة الخامسة فتسني انتاجها من مواد الخام المطلوبة وتسهل نقلها الى الولايات المتحدة الاميركية ، وعلى المملكة المتحدة ان تدخل حالاً وحيناً تطلب حكومة الولايات المتحدة منها ذلك في مفاوضات لاتخاذ الاجراءات اللازمة لتنفيذ احكام هذه الفقرة » .

وفسرت المادة السادسة في فقرتها ان المملكة المتحدة تعني بريطانيا العظمى وايرلندا الشمالية .

وتنص الفقرة الاولى من المادة السابعة على ان هذه الاتفاقية يسري مفعولها في البلدان التالية :

« عدن ، بهاما ، قبرص ، جزائر فولك لاند ، جاميكا ، جبل طارق ، الساحل الذهبي ، هونكونغ ، كينيا ، مالطا ، مورتيز ، نيجيريا ، سانت هيلانة ، سيشل ، سيراليون ، سنغافورة ، تنجانيكا ، اوغندا ، زنجبار ، جزر. وندوورد » . وباختصار يسري مفعول هذه الاتفاقية في جميع ارجاء الامبراطورية البريطانية .

كما ورد يتضح لنا بجلاء السبب الجوهري الذي يجعل الدول الرأسمالية

الغربية تتكتل في معسكر واحد ، فقانون المنافسة الذي يلغي المنافسة في النظام الرأسمالي ويبطل مفعولها عن طريق الاحتكار قد ادى الى صيرورة الاقتصاد الغربي في كل مشروعاته جزءاً من الاحتكار الاميركي ، فالولايات المتحدة اليوم هي الدولة الرأسمالية الكبرى في العالم . أما الرأسماليات الغربية فهي توابع تدور في فلكها . منها تستمد النور ومنها تستمد الحياة . وبذلك تحقق للسيد « وتش » أمين صندوق شركة ستاندارد اويل ما أراد حينما قال في خطاب له عام ١٩٤٦ :

« اننا بوصفنا اكثر الدول انتاجاً ومالاً وصناعة يلزم أن نخزم امرنا ونتحمل المسؤولية التي يلقيها على عاتقنا كوننا نملك غالبية الاسهم في هذه الشركة التي يسمونها العالم » .

إن السيد « وتش » لو استبدل كلمة العالم بكلمة الدول الرأسمالية لأصاب كبد الحقيقة !

وهناك سبب آخر ممكن الاحتكار الرأسمالي الاميركي من التهام الرأسماليات الاوروبية ، وهذا السبب هو وعي الشعوب في المستعمرات ومناطق النفوذ الغربي فلقد شاهدنا الثورات التحررية تندلع عقب الحرب العالمية الاخيرة في الكثير من المستعمرات : ففي اندونيسيا هب الشعب الاندونيسي يطالب بحرياته وامتشق السلاح ضد المستعمرين الهولانديين ، وفي الهند الصينية اندلعت نيران حرب تحررية ضد الاستعمار البريطاني . وفي الجزائر خاض اخواننا طوال سبع سنوات صراعاً دامياً ضد المستعمرين الفرنسيين ، وفي مصر والعراق قام نظام ثوري انتهى عهد الاستعمار البريطاني .

كل هذه الحركات التحررية قامت والدول الرأسمالية الاستعمارية تجتاز ازمة خائفة داخل بلادها ، لذلك لم يكن امام هذه الدول للقضاء على الحركات التحررية في المستعمرات إلا ان تستعين بموارد الولايات المتحدة وامكافاتها ، وكلنا يذكر ان الولايات المتحدة كانت تسهم بقسط وافر في تحمل نفقات الحرب الاستعمارية في الهند الصينية ، كما وان فرنسا قاومت إخواننا في الجزائر

باسلحة حلف الاطلنطي التي هي في الاصل أسلحة اميركية .

لقد أدركت الرأسمالية الاميركية عقب الحرب العالمية الثانية أن الرأسمالية الاوروبية قد بلغت ذروة انحلالها، وأن الفرصة مؤاتية وملائمة جداً لامتصاصها والتهاهما، فوضع الرأسماليون الاميركيون زملاءهم الاوروبيين امام خيار مروع : فاما الانحلال والتلاشي والزوال ، ولما الاندماج في الاحتكار الرأسمالي الاميركي ، وبالطبع اختار الرأسماليون الاوروبيون أهون الشرين وهو الاندماج . وهكذا انهار قانون جوهرى من قانون النظام الرأسمالي : قانون المنافسة والمزاخمة ، وبذلك لم يعد من الممكن ابداً ان تنشب الحروب من جديد بين الدول الرأسمالية التي أصبحت جزءاً من الاحتكار الرأسمالي الاميركي .

٣ - ابقاء المراكز الاستراتيجية في ايد امينة

صرح الاميرال زد فوردي رئيس اركان هيئة القيادة الاميركية المشتركة بما يلي :

« ان اهمية الشرق الاوسط للعالم الحرب بالغة الى حد لا تحتل المغالاة من الناحيتين العسكرية والاقتصادية ، فهي تتمثل اولاً في موارده النفطية التي تسد اليوم معظم حاجات اوروبا، وخسارة هذه الموارد خلية بها ان تكون كارثة تنزل بالعالم « الحر » ، وهي تتمثل ثانياً في ان مركزه الجغرافي يقع على خطوط المواصلات بين الغرب والشرق ، وثالثاً في هذه البقعة ليس للسوفيات دول حاجبة (Buffer State) .

بما ورد يتضح أن الشرق الاوسط هو بمثابة جسر يربط الشرق بالغرب، وان كل طريق يمر من الغرب الى الشرق يجب ان يعبر على هذا الجسر . وفي الولايات

المتحدة الاميركية تقليد هو ان الشركات كثيراً ما تقوم ببناء الجسور والمعابر
وتتقاضى رسماً عن كل سيارة او قطار يمر من فوق الجسر الذي قامت ببنائه .
وفي عالم يسوده النظام الرأسمالي يفضل الرأسماليون ان يكون مالك الجسر
رجلاً ضعيفاً ، اذ انهم يستطيعون في مثل هذه الحالة ان يفرضوا ما يشاؤون
عليه من شروط ، اما في حالة كون مالك الجسر رجلاً قوياً فعندئذ تنقلب
الآية اذ يفرض القوي على المستعمرين شروطه .

الأشتركية

ماهي الاشتراكية - رواد الاشتراكية - الاشتراكية في المجتمع القومي

١ - مدخل تاريخي

كان العالم الفرنسي «ريبود» اول من استعمل كلمة «الاشتراكية» وذلك حينما وصف مذهبي «سان سيمون» و«فورييه». كما وان بريطانيا لم تعرف هذه الكلمة حتى عام ١٨٣٦ ، وذلك عندما اطلقت نعت الاشتراكية على منهاج «روبرت أون Robert Uwn» لادارة مؤسسة «نيو لافارك» الصناعية ، هذا المنهاج الذي بدأ «اون» في تطبيقه في اول كانون الثاني عام ١٨٠٠ . ويقول العالم الفرنسي «توكفيل» ان جميع المبادئ الاشتراكية الحديثة قد نص عليها في كتاب «شريعة الطبيعة» الذي وضعه «موريللي» عام ١٨٥٥ وقد جاء في قول «توكفيل» ما يلي :

«ترون في ذلك الكتاب (شريعة الطبيعة لموريللي) -فضلاً عن جميع القواعد عن سطوة الحكومة وحقوقها الواسعة - كثيراً من النظريات السياسية التي اقلقت بالفرنسا في هذه الايام ، والتي نظن اننا ادر كنا ببصرنا مولدها وهي : الاشتراك في الأموال وحق العمل والمساواة المطلقة وتسوية الاشياء على نط واحد ، ونظام دقيق في حركات الافراد وسكناتهم ، وقد جاء في المادة الاولى منه :

« ان كل ما هو موجود في المجتمع ليس ملكاً لأحد »
وجاء في المادة الثانية :

« ان قوت كل فرد ولوازمه وقيمة عمله من بيت المال »

وجاء فيه ايضاً :

« ان تدخر كل المنتجات في المستودعات العامة لتوزع على افراد الأمة
قضاء حاجاتهم ،

وجاء فيه ايضاً :

« ان يؤخذ الأولاد في السنة الخامسة من والدهم ، ويربوا على نفقة الحكومة
تربية عامة ذات نسق واحد ،

ولا شك ان القارئ يعلم ايضاً ان كارل ماركس كان يرغب في ان يُسمي
مذهبه بالاشتراكية ، غير انه وجد ان الاشتراكية تطلق على مذهبي « سان
سيمون » و « فورييه » لذلك سمى الماركسية بالشيوعية تمييزاً لها عن « السان
سيمونية » والفورية ، أضف الى ذلك ان الماركسيين يسمون الشيوعية
بالاشتراكية العلمية ، وينعتون كل اشتراكية ما عدا الماركسية بالاشتراكية الوهمية .

ب — رواد الاشتراكية :

بدأت الدعوة الى الاشتراكية في القرن السابع عشر ، فعقب ان اعدم الملك
جيمس الاول ملك بريطانيا وارتفع كرومويل الى الحكم ، قامت حركة في
بريطانيا تطالب لا بتحويل ميزان القوة من الملك الى الرجل للعادي فحسب بل
والى العامل السليب من الملكية ايضاً ، وقام « جيرارد نيستاني » زعيم « الحفارين »
بنشر دعوته القائلة بأن الملكية كانت قبل الغزو النورماندي لبريطانيا ملكية
مشاعية ، واخذ « نيستاني » يطالب « كرومويل » بالغاء الملكية الخاصة ، وجعلها
ملكية مشاعية ، وقد كان نيستاني يقول :

« بما ان كل فرد يعمل من اجل تنمية ما تملك الجماعة ، لهذا يتعين ان يكون
لكل فرد الحرية في استعمال أية سلعة في المستودع العام من اجل استمتاعه ومعايشه

المريح، دون ما حاجة الى شراء او بيع، وبدون أي قيد من جانب أي شخص.. كما وانه يتوجب علينا الان نسى دور روسو كرائد من رواد الاشتراكية، فلقد كان روسو ينادي جهاراً بأن الملكية الخاصة سرقة محضة، وانه لم يكن هناك للملكية الخاصة وجود في حالة الطبيعة.

وعقب سقوط روبسيير واعدامه وتولي البرجوازية الفرنسية مقاليد الحكم قام « اميل فرنسوا بابوف » الفوضوي بالاتفاق و « فوشيه » الانتهازي المعروف، بتدبير مؤامرة تستهدف قلب نظام حكم الديركتوار وإقامة مجتمع شيوعي، غير انه سرعان ما اكتشف أمر « بابوف » واعدم وهو لما يتجاوز السابعة والثلاثين من عمره بعد. وكان اميل فرنسوا بابوف « (١٧٦٠ - ١٧٩٧) يقول بأن الطبيعة قد وهبت جميع الناس حقوقاً متساوية في التمتع بكافة الطيبات، وانه يتوجب على الحكومة ان تعتمد الى تأميم جميع المؤسسات الكبرى، ومن ثم ان تعمل على تأميم الثروات الخاصة وذلك باستصدارها قانوناً يحرم الميراث، كما كان يطالب الحكومة بأن تتولى إدارة عمليات الانتاج والتوزيع، وعليها ايضاً ان تحرم كل منهاج ثقافي او تربوي يتعارض وهذا النظام الذي كان يدعو اليه « بابوف ». اما للغذاء والكساء فيجب ان يكونا واحداً للجميع فلا استثناء الا لدواعي اختلاف الجنس (Sex) والسن، واخيراً كان « بابوف » يطالب الحكومة بأن تأخذ جميع الاطفال من أهليهم لتربيتهم وفق اساليب المجتمع الجديد.

وجاء عقب « بابوف » « ايتين كابت » الذي نشر قصة تدعو الى تطبيق المذهب الذي نادى به بابوف واسمى هذه القصة « الرحلة الى ايكاريا ».

يقول « إيتين كابيت » إن « ايكاريا » كانت بلداً تسودها ديكتاتورية فنية - Technical Dictatorship - تعتمد التنسيق والانسجام والتجانس في كل عمل من اعمالها. وكانت شوارعها مستقيمة ومنازلها عمارات تتألف كل عمارة من خمسة عشر بيتاً متشابهة تماماً، ويحتوي كل بيت على احدث المعدات الصحية.

وكانت سقفوها من زجاج وتستعمل الآت التقاط الغبار لكئس الشوارع، وكانت الدولة هي المالكة لكل شيء في «ايكاريا» وهي التي تقوم بتوزيع المنتجات بالتساوي بين المواطنين. وكان الناس يرتدون زياً واحداً، وان كان يسمح للمرء باختيار اللون الذي يوافق ذوقه. اما الصحف فلم يكن من المسموح إصدارها، وكانت الكتب جميعها تخضع لرقابة الحكومة قبل نشرها. وبلغ إيمان «كابيت» بهذه النظرية حداً جعله مهاجر الى الولايات المتحدة الأمريكية ويبتاع قطعة ارض في ولاية «تكساس» حيث انشأ عليها مستعمرة يسودها نظام «ايكاريا». ولكن، ونتيجة للحمي الصفراء التي تفشت في تكساس، انتقل «كابيت» الى «ناوفو» بولاية «الينوي»، وانشأ مستعمرة بلغ عدد سكانها ألفاً وخمسة مائة من الافراد، غير ان مثالية «كابيت» سرعان ما قضت على تلك المستعمرة.

ومن ثم جاء «سان سيمون» (١٧٦٠ - ١٨٢٥) فرأى ان تقسيم المجتمع الذي اعقب عهد الاقطاع، وبدا متجلباً في بداية النزعة التجارية، كان تقسيماً ضاراً، لذلك كان يطالب رجال العلم بإدارة الصناعة بكرم وحكمة لصالح المجموع. وكان «سان سيمون» يرى ان الانسان يحتاج في ظل النظام الجديد الذي دعا اليه، الى سلطة روحية تقوم بالدور ذاته الذي كانت تقوم به الكنيسة في عهد الاقطاع. اما القواعد التي يرتكز إليها نظام سان سيمون الجديد فهي: العلم والصناعة. وكان سان سيمون يقول بأنه لا يكفي ان نقضي على القديم، بل يتوجب ان نتبع عملنا هذا بإيجاد منهاج افضل من المنهاج الفردي المتميز بالفوضى، فالمملكية الفردية المركزة او الجمعية هي وسيلة للاستغلال، والاستغلال هو سبب الفقر والفاقة.

وكان «سان سيمون» يعتقد ان مثل هذا النظام الذي يدعو اليه سيؤدي بالتالي الى قيام الملكية الاجتماعية العامة بدلاً من الملكية الفردية الخاصة، وكان يرى بأن الملكية الخاصة ستبقى محصورة في ادوات الاستهلاك، اما الأجور فيتولى تحديدها موظفو الدولة حيث تجيء متناسبة والخدمات التي يؤديها الفرد.

وفي ظل نظام « سان سيمون » لا مكان للكسالى الخاملين من اغنياء
او فقراء .

بما ورد يتضح ان نظام سان سيمون كان مزيجاً بين الاقتصاد والآداب
(Literature) وكان مسيحياً مثالياً في جوهره ، يعتمد الاماني والتزعات
الانسانية دون الحقائق والواقع المادي للفرد ، لذلك فشلت المحاولة التي قامت
بها جماعة من الناس لتطبيق مذهب « سان سيمون » وكانت هذه الجماعة تعيش
عيشة اشتراكية . وقد كان « لأوغست كونت » صاحب مذهب الفلسفة
الوضعية فضل كبير في تهذيب « السان سيمونية » .

وتتجلى عبقرية « سان سيمون » في أنه كان من رواد الاشتراكية الاوائل
الذين ادركوا ما للعنصر الاقتصادي من اهمية في سير التاريخ وتطور المجتمع .
فلقد قرر سان سيمون ان السياسة ليست سوى علم الانتاج ، وتنبا بان الاقتصاد
سيتفوق عليها وبان السياسة ستندمج فيه (الاقتصاد) .

وبذلك يكون سان سيمون اول من رأى ان الحكومة ستتحول من كونها
اداة لادارة البشر إلى صيرورتها اداة لادارة الانتاج ، وهذا ما معناه على حد
تعبير « أنكلز » القضاء قضاءً مبرماً على الدولة .

كما وأن من لمحات عبقرية « سان سيمون » تقريره عام ١٨٠٢ ان الثورة
الفرنسية لم تكن سوى صراع بين نبلاء الاقطاع من جهة ، والبرجوازية والطبقات
غير المالكة من جهة اخرى ، أضف الى ذلك ايمانه المطلق بان نظامه لن يأتي
بثأر يائنة إلا في حالة قيام وحدة سياسية اوروبية ، وقيام برلمان واحد لاوروبا
يتيح للعقلاء والمستنيرين تولي مقاليد الحكم فيها . لذلك قام بالمجاهرة بهذا الرأي
غداة دخول الحلفاء باريس عام ١٨١٤ وردده عقب هزيمة نابليون في معركة
واترلو عام ١٨١٥ اذ قال آنذاك بان الضمانة الوحيدة للسلم وتقدم اوروبا
وازدهارها يستوجبان قيام حلف بين فرنسا وبريطانيا والمانيا . ويعلق « أنكلز »
على دعوة سان سيمون هذه بقوله :

« لا شك ان في اعلان ذلك على مسامع الفرنسيين (الدعوة إلى تحالف بين

فرنسا وبريطانيا والمانيا) عام ١٨١٥ ، والمناداة جهراً بحلف مع منازعي النصر في معركة واترلو ، جرأة فادرة .

ويجيء شارل فورييه (١٧٧٢ - ١٨٣٧) ليوجه نقداً عنيفاً قاسياً الى المجتمع البرجوازي ، وليكشف عن فضائح هذا المجتمع وغشازيه ، ولينادي بتحويل النظام الى نظام افضل وذلك عن طريق ضرب الامثلة العملية ، لا عن طريق الوعظ والارشاد ، وليسخر من اولئك الفلاسفة الذين يقدمون الى الامم الوعود البراقة ، والكلمات المديحة ، والجل الرثانة الطنانة ، ثم يبين بوضوح كيف ان الحقيقة والواقع يعاقبان مثل تلك الوعود بكشف كذبتها وخداعها ، واخيراً لينادي بتكوين « الهيئات التعاونية » او « الكيونة » (الجماعة المشاعية) Phlanstery . وقد كان هم « فورييه » في « الكيونة » يتركز على الاحتفاظ بالمنافع الميكانيكية في الصناعة الكبيرة والحيلولة دون التحدار العامل الى مرتبة الآلة ، اي صيرورة العامل آلة ، وكان لذلك يقول بان « الكيونة » او « الفلانستري » يجب ان تتألف من ثلاثية عامل فقط يتعاونون على الانتاج . اما ادوات الانتاج فهي ملك مشترك بينهم ، كما ويمكن ان يكون الاستهلاك فردياً حسب اذواقهم . وكان « فورييه » يفترض ان التدبير الاقتصادي سيدفع بسكان « الفلانستري » الى تناول طعامهم معاً . وكان يرى ان الآلة ستخفف من اعباء العمل ، غير انه يجب التحل محل العامل . وعليه فان سكان « الفلانستري » سيكونون احراراً في ادخال الآلة او عدم إدخالها ، كما وان الزراعة ستنظم في « الفلانستري » تنظيمياً يجعلها تتفق والصناعة ، ويكون البيع والشراء تعاونياً الى مدى عظيم ، فتخلف الثروة وتوزع وفق مناهج اقتصادية لم يعرفها الناس من قبل . وسيؤدي شعور العامل بلذة العمل الى زيادة الانتاج زيادة تمكنه من اعتزال العمل في سن الثامنة والعشرين .

وكان « فورييه » يرى ان نظام « الفلانستري » سيبقى منسجماً متناسقاً ، لان الرجل الحر في نظر « فورييه » سيعمل كل ما هو معقول ومناسب . وبذلك تصبح « الفلانستري » على حد تعبير « فورييه » داراً للطبيعة البشرية

لا سجنًا لها . واغرق « فورييه » في التفاؤل بمستقبل العالم الذي كان يراه على وشك الدخول في عصر ذهبي حيث تجر فيه الاسود العربات، وتسحب الحيتان المراكب في البحار ، ويصبح ماء البحر صالحاً للشرب . وبلغ التفاؤل بفورييه حدًا جعله يعلن انه يتوقع في بداية كل شهر قمري ان يتقدم احد الاغنياء ليترك بابا ويلي قدم اليه الاموال اللازمة لتأسيس « الفلانستري » التي خططها .

تقول نظرية « فورييه » في التاريخ ان المجتمع قد مر خلال تطوره في مراحل اربع هي : الوحشية والهمجية والقبلية والتمدنية . ويعني فورييه بالتمدنية المدنية البرجوازية ، ويبين بوضوح كيف ان « النظام » يدفع كل رغبة مارسها المجتمع الهمجي من زيا السافج الى زي معقد ، كما يظهر ان المدنية تدور في حلقة مفرغة ضمن المتناقضات التي تولدها باستمرار ، وكيف ان الفقر على حد تعبير « فورييه » ينبع من التخمّة ، واخيراً يبرهن على ان لكل حقبة تاريخية دورا صاعداً يعقبه دور نازل .

قلت في بداية حديثي عن « فورييه » انه وجه نقداً عنيفاً قاسياً الى المجتمع البرجوازي ، وسبب ذلك يعود الى ان « فورييه » قد اذهله الفساد والتدليس اللذان كانا منتشرين في عالم التجارة ، فلقد عاقبه ابوه في صباه لانه اطلع احد الزبائن على الحقيقة فيما يختص باحدى السلع، وزاد من نقمته على المجتمع البرجوازي حينما امره احد التجار بالقاء حمولة سفينة من الارز في البحر، كان ذاك التاجر قد ابقاها زمناً على امل المضاربة بثمنها ففسدت .

ومن ثم جاء « لوي بلان » (١٨١١ - ١٨٨٢) وكان اول من دعا العمال الى الاستيلاء على السلطة بغية تحقيق الاصلاحات الاجتماعية ، وخلق المجتمع الجديد . وعندما نشبت ثورة ١٨٤٧ اصبح « بلان » عضواً في الحكومة الموقته ، غير انه قاوم الثورة التي كانت تستهدف تأسيس « كومون باريس » وعندما تولى السلطة نابليون الثالث أبعد « لوي بلان » عن باريس وبقي يعيش في المنفى حتى عام ١٨٧٠ حيث انتخب عضواً في الجمعية الوطنية .

وكان « بلان » يرى ان على الدولة ان تنشئ المصانع الاهلية التي تكفل

لكل فرد عملاً، وان تكون هذه الصناعات صناعات دائمة غير موقنة ، وليست مجرد اجراء وقتي لمكافحة البطالة. وكان « بلان » يقول بان المنافسة المتميزة بالجودة والكفاية بين مثل هذه الصناعات ذات الملكية الجماعية وبين الصناعة الخاصة ، كفيلة بالتالي بالقضاء على المشروعات الخاصة . وينصح « بلان » بتأسيس اتحاد قومي للمشروعات العامة يديره ويشرف عليه العمال، وذلك لتلافي الخسارة التي قد تنزل باحد هذه المشروعات .

وكان « بلان » يؤمن بان البشر متفاوتون في المواهب ، وهو اول من نادى بالشعار الاشتراكي المشهور : « من كل حسب مقدرته ، الى كل حسب حاجته » . ويحيى بعد ذلك « بير جوزيف برودين » (١٨٥٦ - ١٨٠٩) ليشنها حملة شعواء على البرجوازية والملكية الخاصة ، وليطالب بالمساواة بين الجميع ، ولينادي بمقاومة الدولة ، وليقول بان المجتمع المثالي هو الاتحاد بين النظام والفوضى ، وليقرر انه لا طريق لالغاء الملكية الخاصة الا بزوال الحكومة، ولينعت ملاكي الاراضي باللصوص ، وليتهم اصحاب الاعمال بسرقة العمال ، ولينادي بان حق الفرد في الحصول على نتاج عمله كاملاً غير منقوص حق مقدس ، وانه يشكل الملكية الخاصة الطبيعية . والفرد حسب فلسفة برودين لا يمكن ان يصل الى حقه هذا الا بزوال الدولة التي تحمي اولئك الذين يسرقون الجماعة ، ويستغلون الآخرين . وبهذا يكون برودين اول من اشترع دستور الفوضوية ووضع مذهبها .

ومن الجدير بالذكر ان كارل ماركس قد شن حملة عنيفة على برودين في كتابه المعروف بـ « بؤس الفلسفة » « The Misery of Philosophy » وذلك ردأ منه على كتاب « برودين » فلسفة البؤس « The Philosophy of Misery » . واخيراً يحيى « روبرت أون » (Robert Own) (١٨٥٨ - ١٧٧١) الذي يعتبر ملهم الاشتراكية البريطانية الحالية وواضع دستورها. وكان « أون » يؤمن بان تحسين الحياة البشرية يتم بواسطة توفير بيئة افضل للعامل ، ويرى ان النظام التعاوني الذي يخلو من الرأسمالين هو وحده المتصف بالانسانية والرحمة ،

وان الفقر ينشأ عن المنافسة بين الناس والآلة ، وانه لا دواء للفقر إلا باستخدام وسائل الانتاج وإدارتها لإدارة تعاونية في صالح الجماهير . ويرى « أون » أن هناك ثلاث عقبات تعترض كل إصلاح اجتماعي وهذه العقبات هي :

الملكية الفردية والدين وطريقة الزواج المتبعة . وكان « أون » اول من استن سنة تبادل المنتجات لقاء ورقات نقدية قيمتها التوحيدية ساعات العمل . وتجربة روبرت أون في « نيو لانارك » مشهورة ومعروفة وليست بحاجة الى ذكر أو تفصيل .

واخيراً لا آخرأ ، يطالعنا عام ١٨٤٧ بالبيان الشيوعي الذي وضعه ماركس وانكلز ، هذا البيان الذي يحاول أن يرسم للطبقة العاملة خط سيرها ، ويحلل التاريخ والمجتمع ويضع لها فلسفة جديدة ، ويحدد للبروليتاريا واجباتها واهدافها . وقبل ان انهي بحثي في رواد الاشتراكية يتوجب علي ان اشير الى حركة اشتراكية فعالة عرفتھا المجتمعات الاوروبية ، وكان لها اثر بارز فيها واعني بها ، الحركة النقابية .

ان النقابة هي حركة وسط بين الاشتراكية والفوضوية ، ومذهب النقابيين يقاوم ملكية الدولة (التأميم) ، وينادي بضرورة جعل كل صناعة ملكاً للعامل العاملين فيها ، وخاضعة لاشرفهم وقوحيهم . وتقوم النقابات بانتخاب مجلس عام يتولى شؤون التنسيق بين مختلف الصناعات ، غير انه لا يحق لهذا المجلس التدخل في المسائل الداخلية للصناعة .

ج — في فشل رواد الاشتراكية

تعمدت فيما تقدم ان استعرض نظريات ومذاهب المفكرين الاشتراكيين البارزين والسابقين لكارل ماركس وفريدريك انكلز استعراضاً موجزاً ، غير

أنني سميت ان اقدم الى القاريء خلاصة الخلاصة لفلسفاتهم ومذاهبهم ، وذلك كله بغية التقرير ان الافكار الاشتراكية التي جاءت قبل الماركسية لم يكتب لها اي نجاح في الميدانين النظري والعملي ، ولم تلق أية استجابة من لدن الجماهير ، ولم تصبح عقائد جماهيرية ثورية واما النجاح الذي لاقاه « روبرت أون » في تجربته الممثلة في مؤسسة « نيو لبارك » فكان نجاحاً وقتياً وعلى نطاق ضيق ومحدود ، كما وان نظام « الفلانستري » الذي جاء به « فورييه » لم يصادف غير الفشل في كل من القارتين الاوروبية والاميركية ، فما هو السر في ذلك ؟ إنني اعتقد ان سبب فشل تلك المذاهب الاشتراكية يعود أولاً واخيراً الى كونها مذاهب غير علمية ، اي مذاهب مثالية تمت باقرب الصلات الى الغيبية ، او بالأحرى تنبع من الغيبية ذاتها ، لذلك جاءت تلك المذاهب غارقة في الصوفية والخيال والتفاؤل . « ففورييه » الذي كان ينتظر من احد كبار الاغنياء في بداية كل شهر قمري أن يقرع بابه وان يقدم له المال اللازم لتمويل « الفلانستري » وسان سيمون صاحب كتاب « المسيحية الجديدة » الذي كان يرى ضرورة قيام كنيسة جديدة تحل محل الكنيسة القديمة في عهد الاقطاع ، وتقوم بالدور الذي كانت كنيسة الاقطاع تقوم به ، واضرابها من المفكرين الاشتراكيين ، لم يكونوا ثوريين بل اصلاحيين . وهناك ، كما يعلم القاريء ولا شك ، كبير فرق بين الاصلاحى والثورى . فالاصلاحى يتوخى تبديل المظهر والابقاء على الجوهر . اما الثورى فائما يسمى الى تبديل المظهر والجوهر معا ، لذلك لاقت دعوة « روبرت أون » في بداية الامر الاحترام والتبجيل والتقدير من لدن المجتمع البرجوازي في بريطانيا ، غير ان « أون » عندما بدأ يسير على الطريق السوي وعندما بدأ ينادي بمبادئ الاشتراكية العلمية ، وعندما بدأ يكتسب الصفات الثورية تنكر له البرجوازيون وتناسوه واهملوه .

لقد كانت البرجوازية آنذاك آخذة في النمو والتضخم والتحول الى طبقة رأسمالية احتكارية استغلالية استعمارية . وكانت البروليتاريا آخذة في الازدياد

والنمو والتضخم العددي ، وكان الوعي الاجتماعي يزداد بين صفوف العمال وينتشر ، ولقد ادركت البرجوازية ان البروليتاريا في طريقها إلى الانفجار ، وان على البرجوازية الكبيرة اذا ما ارادت ان تحتفظ بملكيات مؤسساتها وبالسيطرة على المجتمع اقتصاداً وسياسة ان ترفع من المستوى المعاشي للعمال ، فتزيد الاجور وتخفض ساعات العمل ، وتشجع المحركات التي ترمي الى الاصلاح لا الى الثورة ، وان تبقي كل حركة اشتراكية سجيبة الغيبية في مثاليتها وأخلاقيها ، وبذلك تتحول الاشتراكية من حيث هي حركة ثورية تستهدف قلب نظام الحكم قلباً كاملاً شاملاً بواسطة التطويح بطبقة اجتماعية والارتفاع بطبقة اجتماعية اخرى ، اقول وبذلك تتحول الاشتراكية من حيث هي حركة ثورية الى صيرورتها حركة إصلاحية ، ولهذا طلع علينا برنشتين Bernstein بنظرية جديدة هي النظرية المعروفة بالاشتراكية المتطورة Evolution Socialism ، هذه الاشتراكية التي تتعارض وابسط مبادئ الجدلية إذ تقول بانه ليس هناك من امل قريب في سقوط المجتمع البرجوازي وزوال الدولة البرجوازية ، ويؤكد برنشتين بان الرأسماليين لن يتناقص عددهم في الدولة الرأسمالية مهما قويت مراكزهم ، بل على العكس من ذلك سيتزايد ، ويقول بان نظام الاحتكار لن يسير بسرعة متعادلة في كل فرع من فروع الصناعة ، ويذهب الى حد الهذيان بان خميرة الاشتراكية قد بدأت تتخلل الرأسمالية ؟! وانه تبعاً لذلك يتوجب على الهيئات الاشتراكية ألا تعمل كهيئات ثورية بل كهيئات محولة في المجتمع .

هذه هي خرافات برنشتين واساطيره ، وقد اثبت تاريخ تطور تاريخ الاقتصاد السياسي في البلدان الرأسمالية خطأ جميع نظريات برنشتين واضرابه ، فالصناعات وحق المصارف في الولايات المتحدة مثلاً قد بلغت اعلى الدرجات من التمرکز في الكارتلات والشركات المتحدة ، كما وان عدد الرأسماليين في تناقص مستمر ومتزايد ، أضف الى ذلك ان الامتراكية قد برهنت انها لا تستطيع ابداً ان تقوم بدور المحول في المجتمع الرأسمالي ، بل ان ما يقوم بمثل هذا الدور هو الفاشية ، وذلك عندما ترى الطبقة البرجوازية الكبيرة ان فقدان التوازن الطبقي

سيؤدي الى ثورة اشتراكية ترفع الى الحكم فاشستيين من عسكريين او غيرهم حيث يحاول هؤلاء ان يعيدوا هذا التوازن عن طريق العنف والاكراه او المصالحة والمهادنة .

كلنا يعلم ان الاشتراكية في نهاية مراحلها تتعارض تعارضاً تاماً ومبدأ الملكية الخاصة ، إذ ان الاشتراكية قامت لتنفي هذا المبدأ نقيضاً تاماً ، وتستأصل جذوره من المجتمع استئصالاً جذرياً ، ولنسمع الآن ما يقوله «رمزي مكدونالد» زعيم حزب العمال الاشتراكي البريطاني السابق وزعيم «الدولية الثانية» وذلك في كتابه «الحركة الاشتراكية» وفي الصفحة ٨٩ منه :

« ان الفكرة الشائعة عن الاشتراكية بانها تطالب بإلغاء الملكية الخاصة ، هي فكرة خاطئة لا تقل في خطأها عن الفكرة القائلة بان الاشتراكية والفوضوية شيء واحد » .

ولنسمع المتناقضات الطريفة في تحديد غايات الاشتراكية كما يراها «رمزي مكدونالد» إذ يقول في الصفحة ذاتها وفي الكتاب ذاته ما يلي :

« تبدي الاشتراكية استحسناتها وتساعد في النهاية على استئصال نتائج الملكية الخاصة ، وتحقيق الممكنات المرغوب فيها ، وتكون نظرة الاشتراكية في الملكية الخاصة جزءاً من غايتها العامة في منع المصالح الخاصة التي تسلب الرفاه الاجتماعي او ما يتعارض وهذا الرفاه » .

هذا ما يقوله احد الزعماء البارزين جداً للاشتراكيين البريطانيين ، ومنه يفهم بوضوح ان الاشتراكية كما يراها رمزي مكدونالد لا تتوخى ابداء القضاء على الرأسمالية والتنظيم الرأسمالي للاقتصاد ، وانما تتوخى فرض نظام من المراقبة الدقيقة والحصص (Containment) على الرأسمالية ، وممثل «مكدونالد» كمثال انسان يرى افعى تسعى في بيته ، فبدلاً من ان يسحق رأس هذه الافعى بكعب خذائه يمسك بها ويخلع اسنانها ثم يطلق سراحها من جديد وهو يقول : « ايها الافعى لقد خلعت انيابك وسأتركك الآن تعيشين في منزلي بين أهل

بقي ، غير أنني سأعيد خلع انيابك عندما تنمو من جديد .

هذه هي « الاشتراكية » التي انبثقت عن سان سيمون وفورييه وبرنشتين وروبرت أون وغيرهم من المثاليين ، وهي اشتراكية كما يرى القارئ ولا شك ، غير منطقية او عملية إذ أنها تعتمد على النوايا الطيبة لا الأعمال ، وتعتمد على التفاؤل لا المعالجة الجذرية للأمور ، ومثل هذه الاشتراكية لا بد أن تفشل ولا بد ان تنهار ، إذ أنها لا تستند إلى أية فلسفة ، ولا تقوم على أية أسس فلسفية جديدة ذات صفة ثابتة ولون ثابت . ولذلك لا يمكن أن ترتفع في صراعها إلى مستوى الرأسمالية ، فالرأسمالية تؤمن بالواقع وتؤمن بالحقائق مهما كانت مرة او باردة ، وتتعامل وهذه الحقائق في كل نشاطاتها ، لذلك لن يكتب لأية حركة اشتراكية النصر على الاستبداد والاستعباد الرأسماليين إلا إذا كانت تلك الحركة واقعية في نشاطاتها ، واقعية في فهمها للعناصر والاشياء والاحداث ، واقعية في فهمها للانسان والمجتمع والدولة ، واقعية في تحديد دور الفرد والطبقة ، واقعية في تعاملها والطبيعة والكون الكبير . لذلك فان أعظم الاخطار التي تهدد الاشتراكية تتمثل في المثالية والأوهام الصوفية ، وفي تحول الاشتراكية من حيث هي حركة ثورية الى صيورتها حركة إصلاحية ، ولتجنب هذه الاخطار على القادة الاشتراكيين ان يتمتعوا بالفكر الثاقب والشجاعة والجرأة .

د — كيف ولماذا نشأت الاشتراكية ؟

قلت في مكان آخر من هذا الكتاب ان العالم يسير في جميع نشاطاته العلمية والسياسية والاقتصادية وفق مذهب الجدلية ، هذا المذهب الذي وضع له « هيجل » دستوره ، وشرع له قوانينه الثلاثة المعروفة ، ومن ثم جاء

ماركس ليثور على هيجل أو لي طرح على حد تعبير أنكلز قشرته المثالية، وبأخذ نواته العلمية، لذلك ووفق هذه القوانين الجدلية ولدت الحركة الاشتراكية وتكونت داخل رحم الرأسمالية .

فمعقب ان دخلت الآلة ميدان الانتاج، وغدت عنصراً جوهرياً ووسيلة جهورية او بالاحرى الوسيلة الجهورية الوحيدة للانتاج اخذت البورجوازية تقفز قفزاً في سلم الرأسمالية وسلم السلطة، ووجهت ضربات ميمته وقائلة للاقطاع فكانت حركات الاصلاح الديني التي قام بها جون هُس، وكلفن ومارتن لوتر، وكانت الثورة البريطانية وإعدام جيمس الاول، وتولي كرومويل مقاليد الحكم، وكانت الثورة الفرنسية وكان القضاء النهائي على الاقطاع، وكان الاتحاد الالماني الذي حققه بسمارك، وكانت الوحدة الايطالية وكان وكان .. الخ ..

غير ان هذه الانتصارات الساحقة في الميدان السيامي لم تبدل الحقيقة، حقيقة جوهر الرأسمالية كنظام اقتصادي وسياسي، ولم تلغ المتناقضات التي تكتنف صميم النظام الرأسمالي، فالرأسمالية التي خلقت الصناعات الضخمة وأوجدت المشروعات ذات الطاقات الانتاجية الهائلة، والتي اجتاحت بجيوشها مختلف البلدان في افريقيا وآسيا، وحولت معظم الاقطار في هاتين القارتين إلى مستعمرات تمد صناعاتها بالاسواق والمواد الأولية، خلقت أيضاً العدو اللدود الذي سيفضي عليها، خلقت الجماهير الراغبة في التحرر والحياة الكريمة، فلقد أدت الثورة الصناعية في اوروبا، وأدى توسع المشروعات الصناعية وتضخمها إلى نشوء طبقة جديدة في المدن هي طبقة « الاجراء »، طبقة العمال، وكان يرافق لزيادة المشروعات الصناعية، كما قلت في موضع آخر من هذا الكتاب، ازدياد في جيوش العمال . وكان الدستور الذي ينظم علاقات العمال بالرأسماليين يتوخى تحقيق اكبر قدر من الربح، وهذا الامر لن يتحقق إلا على حساب العمال وعلى حساب مستواهم المعاشي، لذلك لم يكن من بد للرأسمالية إلا ان

تليجاً إلى الاستغلال ، والاستغلال البشع بالذات .

وكان هذا الاستغلال يتمثل في القاعدة القائلة : اقل قدر ممكن من الاجور ، واكثر قدر ممكن من الساعات العملية الانتاجية . ولما كانت الحياة في جوهرها حركة متحركة تقول بأن لكل فعل رد فعل ، وان للطاعة حدوداً وللصبر حدوداً ايضاً ، لذلك ووفق القانون الثالث من قوانين الجدلية وهو قانون « نقي النقي » كان لا بد للعمال ان يشعروا بالمظالم التي تنزل بهم ، ويروا الحيف البالغ الذي يلحقه الرأسماليون بمصالحهم ، فيستيقظوا ويعوا اهميتهم التاريخية كطبقة ثورية ، طبقة تؤلف الاكثرية الساحقة من الامة والامم ، لذلك جاءت الاشتراكية بمثابة صيحة وعمل يدعو إلى إنجاز المظهدون المستغلون والمعدبون في الارض .

هـ — ما هي الاشتراكية ؟

يعرف الاشتراكي البريطاني برتراند رسل الاشتراكية بما يلي :

« الاشتراكية هي اشتراك المجتمع في ملكية الارض ملكية اشتراكية ، وفي رأس المال في ظل نظام حكم ديموقراطي ، ويترتب على هذه الاشتراكية توجيه الانتاج توجيهاً يجعله انتاجاً للاستهلاك لا للربح ، ويترتب على هذه الاشتراكية توزيع الانتاج على الجميع ، وإذا بقي ثمة من تباين او اختلاف في الحظوظ فيجب أن تبرره المصلحة العامة . »

وهناك تعريف آخر للاشتراكية يتعارض في بعض وجوهه وتعريف برتراند رسل ، الآنف الذكر ، ويتبنى هذا التعريف الاشتراكيون المتأثرون ببعض الشيء بالمادية الديالكتيكية ، ويقول هذا التعريف ما يلي :

« الاشتراكية هي مظهر من مظاهر المجتمع ، قواعده الاساسية هي :

١ - ملكية وسائل الانتاج ملكية اجتماعية اشتراكية .

٢ - إدارة هذه الوسائل واستخدامها ديمقراطياً .

٣ - توجيه الانتاج توجيهاً يتفق وحاجات البشر .

ويقول هؤلاء بأن إيجاد مثل هذا المجتمع مرهون بإلغاء الملكية الفردية والملكية القومية ، أو بتعبير آخر ان زوال السيادة القومية هو الشرط الضروري لتحقيق الاشتراكية . كما يقولون بأن إطلاق الصفة الاجتماعية على الملكية الاشتراكية ، يعني أن هذه الملكية قد غدت ملكية في خدمة الجماعة لا في خدمة الدولة بغية تدعيم سيادتها القومية ونشر نفوذها السياسي والمذهبي .

بما ورد يتضح أن جميع الاشتراكيين ، وطبعاً ما عدا الاشتراكيين البريطانيين ، متفقون على إلغاء الملكية الخاصة ، وعلى توجيه المشروعات والمؤسسات توجيهاً يتوخى سد حاجات البشر لا الربح .

إذن فهل يتوجب على الاشتراكيين ، او المؤمنين بالاشتراكية ، ان يقدموا في اول خطوة يخطونها في ميدان النشاط السياسي على إلغاء الملكية الخاصة ؟

إن من ابرز صفات الاشتراكية هي قدرتها على « التأقلم » والمجتمع ، وكلنا يعرف ان المجتمعات البشرية على ظهر هذا الكوكب قد بلغت اليوم مراحل متفاوتة في التقدم والرقى ، وان لكل مجتمع من هذه المجتمعات ظروفه الاقتصادية والاجتماعية الخاصة به ، لذلك فان وسائل تحقق الاشتراكية في مجتمع ما تحددها حسب منطوق الفلسفة الديالكتيكية الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي تسود ذاك المجتمع . فقد ينهج مجتمع معين في طريقه الى الاشتراكية نهجاً مغايراً ومخالفاً تماماً للنهج الذي ينهجه مجتمع آخر ، غير ان كلا من المجتمعين المذكورين يسلكان الطريق الصحيح

إلى الاشتراكية ، لذلك فالغاء الملكية الخاصة التي هي الهدف الاساسي للاشتراكية ، واستبدالها بالملكية الاجتماعية الاشتراكية ، هي الهدف النهائي للحركة الاشتراكية الواقعية ، وليست الهدف الاولي المباشر . فقد يضطر اللقائمون على توجيه المجتمع في بلد ما إلى تشجيع البرجوازية في ذلك البلد ، وحمايتها ورعاية مؤسساتها وإتاحة كل الظروف التي تمكنها من النمو والازدهار . وهذا العمل ، كما يبدو ، يشكل انحرافاً كلياً عن النهج الاشتراكي ، غير أنه يشكل في الواقع خطوة واسعة نحو الاشتراكية ، وهذه الخطوة تتمثل في زيادة فعالية رأس المال القومي زيادة لا يمكن أن تتحقق إلا عن هذ السبيل ، سبيل حماية البرجوازية الناشئة التي تمليها وتفرضها ظروف اجتماعية معينة من سياسية او تقنية .

غير أن قيام مجتمع ما باتاحة مثل هذه الفرصة للبرجوازية يجب ألا يتم الا في حالة واحدة ، وهذه الحالة هي ان يكون الاشتراكيون الواقعيون الممثلون مظهرأ وجوهراً للجهاير في دست الحكم ، وبأيديهم مقاليد السلطة والأمور ، فالاشتراكيون آنذاك يسمعون لرأس المال بالنمو والازدهار ، غير أنهم يمنعون الرأسماليين من السيطرة والحكم وإدارة المجتمع ادارة تتوخى الربح لا سد حاجات البشر .

كما ورد يتضح انه ليست للاشتراكية في مراحلها الابتدائية قوانين حديدية تطبق في كل بلد وفي كل قطر دون مراعاة لظروف ذاك البلد او القطر ، بل ان الاشتراكية في مراحلها الاولى تتأقلم والمجتمع ، وتتأثر بظروفه ، وتسلك كل سبيل يؤدي إلى زيادة فعاليات رأس المال القومي ، شريطة أن تكون السلطة بأيدي الاشتراكيين بغية حماية المجتمع من الانحرافات الرأسمالية .

غير ان الاشتراكية في جميع البلدان ، وبفض النظر عما قد يكتنف هذه البلدان من تفاوت في التقدم الاقتصادي والاجتماعي ترى ان المرحلة الاولى في

الطريق الى الاشتراكية ، تتجزأ حالما تستولي الدولة على المرافق العامة ذات الامة الحيوية للشعب ، كالخطوط الحديدية ومحطات توليد الكهرباء وغيرها ، وتديرها إدارة إجتماعية اشتراكية ، كما ويتفق الاشتراكيون على ان الاجراء التمهيدي الذي يسبق هذه المرحلة يتمثل في القضاء قضاء نهائياً على الاقطاع ، وتدمير جميع مشتقاته الاقتصادية والاجتماعية ، وذلك لأن الاشتراكية الحديثة تبدأ فعاليتها ومفعولها حالما يخطو المجتمع من الاقطاع إلى اولى مراحل الرأسمالية .

وتسلك الاشتراكية نهجاً واحداً في جميع البلدان والأقطار والدول عندما تبلغ الاشتراكية في تلك الدول مرحلتها النهائية ، هذه المرحلة تتمثل في تحقيق طاقة واسعة من الانتاج قفي باحتياجات الأمة المتزايدة . آنذاك يقوم المجتمع بتنسيق الاقتصاد تنسيقاً عضوياً بحيث يتناسب الانتاج وحاجات المجتمع ، ويضمن التوزيع وفقاً لهذه الحاجات ، وتوضع موازنة دقيقة بين الانتاج واستهلاك الأسواق ، وتزول الملكية الخاصة زوالاً تاماً ، وتصبح الحكومة مجلس إدارة للمجتمع .

و — بين اقتصاد الدولة ورأسمالية الدولة

يخلط الكثيرون من الاشتراكيين بين اقتصاد الدولة ورأسمالية الدولة . ففي الدولة التي يسيطر عليها الاشتراكيون الواقعيون لا يقوم اقتصاد دولة ، بل إنما تقوم رأسمالية الدولة . فالحكومات التي تعتمد إلى سياسة اقتصادية منهجية ، اي تعمل بنظرية اقتصاد الدولة ، ليست بحكومات اشتراكية ، بل إنما هي حكومات ترفعها البرجوازية الكبيرة إلى سدة الحكم عندما تتأزم الأوضاع الاقتصادية فينتشر الكساد وتعم البطالة وتدهور القدرة الشرائية

لدى الأكثرية الساحقة من الأمة، وبذلك يختل التوازن الاجتماعي بين الطبقات الاجتماعية .

في مثل تلك الأحوال تصبح المشكلة بالنسبة للرأسمالية والرأسماليين مشكلة بقاء أو لا بقاء ، وهنا تجند الأنظمة الرأسمالية كافة قواها وتتنازل عن بعض امتيازاتها وبعض أرباحها وتتخلى عن الكثير من حرياتهما للدولة بغية تخطي الأزمة التي تعانيتها، فتسلم مقاليد أمورهما إلى ديكتاتورية فاشية بغية إخماد نيران ثورة اجتماعية يكون العمال على وشك إشعالها ، ولذلك فإن اقتصاد الدولة لا يؤدي أبداً إلى ثورة اجتماعية ، بل إنما هو محاولة برجوازية لخلق مثل هذه الثورة في المهد . اصف إلى ذلك ان اقتصاد الدولة يبقي المجتمع منقسماً إلى طبقتين هما : طبقة العمال الأجراء ، وطبقة الرأسماليين المتمولين ، وتتركز المهمة الأساسية لاقتصاد الدولة على تحقيق الأغراض الثلاثة الآتية :

الأول : إعادة تشغيل الآت الإنتاج .

الثاني : فتح أسواق جديدة .

الثالث : إعادة التوازن بين طبقات المجتمع .

لذلك يتضح لنا تماماً ما ورد اعلاه ان مهمة الهدف الرئيسي لاقتصاد الدولة هو إعادة الحياة للرأسمالية التي تكون قد دفعت بها المتناقضات التي تكتنفها إلى الانحلال وشفير الهاوية .

وهناك نقطة هامة في اقتصاد الدولة وهي ان اقتصاد الدولة كثيراً ما يكون لإجراء تهديداً لخوض غمار حرب استعمارية قارية أو عالمية ، وسبب ذلك ان اقتصاد الدولة الذي يستهدف فيما يستهدفه فتح أسواق جديدة ، بغية تشغيل الآلات ، وهذا ما يقتضيه اللجوء إلى الضغط الدبلوماسي بالتهديد العسكري بالحرب .

ودليلي على ذلك ما حدث في المانيا النازية وإيطاليا الفاشية ، فعندما تولى هتلر الحكم كانت المانيا تتخبط في ازيمات اقتصادية عنيفة ألقت بالمجتمع

الألماني اقتصاداً وسياسة بين برائن الفوضى والانحلال ، وبلغت فيها نسبة العمال المتعطلين عن العمل نسبة لم تألفها طيلة تاريخها ، فساد الكساد وتفشيت البطالة نفسياً ذريعاً ، واختل التوازن الاجتماعي بين الطبقات ، واحست البرجوازية بأن اخطاراً محققة تحديق بها وتهدد وجودها ، فارتفعت بالحزب النازي ويهتلر إلى الحكم ، وحالما تسلم هتلر مقاليد الأمور سارع إلى تحويل الاقتصاد الألماني من اقتصاد رأسمالي إلى اقتصاد دولة ، فقام بشق للطرق الحربية ، وبدأ يعيد لإنشاء الجيش الألماني ويعد مشاريع التسليح ، وهذا ما يعني إعادة الحياة إلى الصناعة ، ومن ثم اخذ ينهج مبدأ جديداً في التجارة الدولية هو مبدأ الضغط والتهديد حين إبرام الصفقات التجارية ، وقد حدث ان فرضت المانيا على تشيكوسلوفاكيا مثلاً شراء الاسبرين الألماني بفولاد تشيكوسلوفاكي ، كما ظهر إلى الوجود مبدأ المجال الحياتي لالمانيا (Lebensraum) .

لقد ثبت تاريخياً ان الدول الرأسمالية تلجأ إلى نظام اقتصاد الدولة عقب كل أزمة دورية تعتري التنظيم الرأسمالي ، كما ثبت ايضاً ان اقتصاد الدولة يؤدي حتماً بالدول الرأسمالية إلى الحرب ، وسبب ذلك انه مهما كانت قوة العقول والارادة والحزم التي تضع مناهج اقتصاد الدولة وتنفذها ، فانه لا يمكن ابدأ لها ان تقضي على المتناقضات التي يقوم عليها النظام الرأسمالي ، ودليلي على ذلك انه عقب الحرب العالمية الاولى ببضع سنوات لا تتجاوز العشر ، بدأت طلائع الأزمة الدورية متجلية في افق الدول الرأسمالية ، وبلغت هذه الأزمة أشدها عام ١٩٣٢ ، وأصبحت المجتمعات الأوروبية والأميركية في الدول الرأسمالية على وشك ان تنفجر ، فارتفعت البرجوازية الأميركية بفرنكلين روزفلت والحزب الديموقراطي إلى الحكم ، وسرعان ما عمد روزفلت إلى انتهاز سياسته الاقتصادية المعروفة بـ (New Deal) وهي سياسة تلامس سياسة اقتصاد الدولة أو بالأحرى تندمج فيها ، كما كانت العسكرية اليابانية التي فرضت هي بالتالي نظام اقتصاد الدولة تقوم آنذاك بحروبها الاستعمارية في الصين ، وعقب ذلك بقليل قام موسوليني باجتياح الحبشة

واستعمارها ، ويلاحظ ان تولي روزفلت مقاليد الحكم في اميركا كان تقريباً في وقت واحد وتولي هتلر زمام السلطة في المانيا ، وقامت الديكتاتوريات العسكرية والمدنية في البلقان .

وكانت معظم الدول الاوروبية تدّين بمذهب اقتصاد الدولة ، ولكن إلى أين انتهى بالعالم المطاف أخيراً ، لقد انتهى اقتصاد الدولة بالعالم إلى الحرب العالمية الثانية ، هذه الحرب التي عرفنا من ويلاتها وسمعنا عن مآسيها الكثير .

اما فيما يتعلق بموضوع إعادة التوازن الاجتماعي بين الطبقات ، فلا شك اننا جميعاً نذكر الطرق التي لجأ اليها النازيون والفاشستيون والعسكريون اليابانيون لإعادة هذا التوازن المطلوب . فلم يكن امام هؤلاء جميعاً إلا وسائل العنف والإكراه ، فامتلأت المعسكرات بالمعتقلين ، وشرد الاحرار وقيدت الحريات ، وغدا التفكير جريمة يعاقب عليها النظام العام بأشد العقوبات واقسامها .

لذلك كله فأنني أعجب كثيراً من امر اولئك الاشتراكيين الذين يعتبرون اقتصاد الدولة خطوة تقدمية بالنسبة للنظام الرأسمالي ، فاققتصاد الدولة في نظري هو الاجراء العنيف الرهيب الذي تلجأ اليه البرجوازية ، عندما تلمس ان زمام الامور يكاد يفلت من ايديها ، وهي مع انها تتنازل عن بعض امتيازاتها وبعض حرياتنا في إدارة مشروعاتها ومؤسساتها ، غير أنها تتقاضى ثمن تنازلها هذا ، الارهاب والقسوة والعنف الذي تمارسه السلطة ضد المجتمع بأسره ، وضد قوى الطليعة بالذات ، بغية تأمين اسباب البقاء لها .

ز - الاشتراكية في المجتمع القومي

ان المتتبع لتاريخ تطور الاقتصاد وانعكاسات هذا التطور على الاطر الحقوقية للدول ليلاحظ ان البرجوازية الاوروبية قد اتخذت من القضية القومية ومن الدعوة اليها وسيلة الى هدم نظام الاقطاع الذي كان سائداً في الدول الاوروبية حتى بداية القرن التاسع عشر : فلقد غذت البرجوازية الالمانية والايطالية وغيرها من البرجوازيات الاوروبية كل حركة قومية تستهدف توحيد الاقاليم في دولة موحدة او متحدة . وسبب معاضدة البرجوازية الاوروبية لمثل هذه الدعوات القومية المستهدفة الوحدة او الاتحاد ، جلي وواضح . إذ انه عندما بلغت البرجوازية اشدها وغت صناعاتها واخذت تعذف بالسلع والمنتجات بكيات ضخمة وافرة ، وجدت ان لا سبيل امامها الى الحياة والازدهار الا عن طريق إلغاء الحدود بين الاقاليم وتيسير حرية انتقال البضائع والاشخاص ورؤوس الاموال ، وذلك لا يمكن ان يتم الا بتوحيد مثل هذه الاقاليم في دولة موحدة او متحدة ، لذلك يعتبر المؤرخون ان اول خطوة عملية في طريق الاتحاد الالمانى جاءت متمثلة في الاتحاد الجمركي (Zollverein) الذي عقدته الاقاليم الالمانية فيما بينها في بداية القرن التاسع عشر . ولا يخفى على القارىء ما لانجاز الاتحاد الجمركي بين الاقاليم الالمانية من فوائد مادية تعود على البرجوازية الالمانية . اصف الى ذلك ان الرأسماليات الاوروبية المتقدمة (Advanced) كانت قد بدأت تتوسع استعمارياً في القارات الاميركية والافريقية والاسيوية ، ونحن اذا ما دققنا في احداث التاريخ نجد أن الدول الاوروبية السبابة الى الاستعمار وانشاء المستعمرات كانت تلك التي حققت وحدتها القومية وجسدتها في اطار حقوقي كأسبانيا والبرتغال وانكلترا ومن ثم فرنسا ، لذلك كانت البرجوازية الالمانية والايطالية تتلوى ألماً تحت سياط الطمع والرغبة الجامحة في الاستعمار ، وهي تشاهد امتيها

مزقة الاوصال يعيش كل جزء منها في اقليم له كيان الدولة في جوهره ومظهره ، لذلك دعمت البرجوازية الالمانية والايطالية كل حركة سياسية تستهدف جمع الشمل في الدولة الموحدة او المتحدة . كما ان التاريخ ليظهر لنا بجلاء ووضوح ان العالم لم يعرف او يشهد للاستعمار الالمانى او الايطالى افرأ الا عقب ان حققت هاتان الامتان وحدتيهما القوميتين وجسداهما في اطارين حقوقيين .

وهنا قد يتساءل القارئ عما اذا كانت الحركة القومية المتوخية لتحقيق الوحدة القومية وتجسيدها في اطار حقوقي تعتبر حركة رجعية ؟

انني اجيب انه من الخطأ الفاحش اعتبار مثل هذه الحركة حركة رجعية اذ انها حركة تقدمية تاريخية ، بكل ما للكلمة التقدمية من معنى ومفهوم ، وذلك لان الحركة القومية عندما تستهدف تحقيق وحدة الأمة فانما تستهدف في الوقت ذاته ضرب نظام الاقطاع وتدمير مشتقاته .

لذلك فان الحركة القومية حركة تقدمية وثورية ، اما ثورويتها فتتجلى في نضالها ضد نظام الاقطاع ، هذا النظام الذي يدعم التفرقة بين الأمة ويصنع من كل اقليم دولة مستقلة ذات سيادة ، ولنا في العالم العربي وفي دوله المتخلفة خير دليل على ذلك ومثل .

وهنا قد يسأل القارئ عن طابع القومية العربية وجوهرها ، وعما اذا كانت القومية العربية ستبقى حركة تقدمية ثورية في المدى الطويل ؟

وعلى هذا السؤال اجيب بأنه بما لا شك فيه ان الحركة القومية العربية الحالية هي حركة تقدمية ثورية شكلاً وموضوعاً . ولقد شاهدنا كيف ان هذه الحركة قد ضربت الاقطاع في مصر والعراق وسورية بقسوة وقوة وكيف دمرت كيانه ، وسحقت جميع مشتقاته ، وكيف ايقظت في الفرد الوعي الاجتماعي . وفي نظري ان يقظة الوعي الاجتماعي في الفرد اهم بكثير من يقظة الوعي القومي ، وذلك لان الفرد حينما يعي ذاته اجتماعياً لا تتفتح

في داخله فضائله كموطن ، بل إنما تتفتح فيه فضائله كقومي يعيش في مجتمع قومي واخيراً كأنسان يعيش في مجتمع انساني يضم البشرية بأسرها لذلك فاني اقرر هنا ان الحركة القومية العربية هي في هذه المرحلة ، وفي مراحل تلي . حركة تقدمية ثورية لأنها تهدف الى تحقيق الأغراض الآتية :

ا - التحرر من الاستعمار .

ب - ضرب الأنظمة الإقطاعية في الأقاليم العربية .

ج - توحيد الأقاليم العربية في دولة اتحادية فيدرالية .

وهنا قد يسأل القارئ مرة ثالثة عما اذا كانت الحركة القومية العربية ستتحول بالتالي في أهدافها الى حركة برجوازية ، كما تحولت حركات القوميات الأوروبية الأخرى ؟ وعما اذا كانت الحركة القومية العربية ستنهج مستقبلاً وعقب تبلورها وتجسدها سياسة عدوانية استعمارية تتوخى الغزو والفتح وانشاء المستعمرات ؟

انني اجيب على هذين السؤالين قائلاً بأن الوعي الشعبي او بالأحرى الوعي الاجتماعي في الفرد العربي هو في طريقه الى الاكتمال ، كما وان الظروف الدولية من ثقافية وسياسية ، واعدود لأكرر ثقافية ، لن تسمح للبرجوازية العربية بتحويل الحركة القومية في صالحها واستغلالها استقلالاً يمكنها من اجتناء المزايا وتكديس الثروات . فالفرد العربي قد استيقظ اجتماعياً ومن المستحيل تنويمه مرة أخرى . اما على السؤال الثاني فأجيب ان الاستعمار قد اخذ في اعقاب الحرب الثانية يتهاوى وينهار في كل بلد وقطر . ففي آسيا تحررت الهند وسورية الخ ، وفي افريقيا تحررت « غانا » ومصر . وهناك اقطار افريقية أخرى قد تحررت او هي في طريقها الى التحرر ، وهذا دليل على ان الاستعمار قد بلغ ذروة انحلاله ، وهو يلفظ اليوم انفاسه الأخيرة ، لذلك كله فطبيعة الظروف العالمية كلها تمنع وتحول دون اية محاولة جنونية ، قد تدفع بالحركة القومية

العربية الى العدوان والاستعمار ..

وقد يسأل القارىء سؤالاً آخر ، عما اذا كانت يتوجب على الأمة العربية ان تكرر كل نشاطاتها بغية اشعال الثورة العالمية وتحقيق اهداف هذه الثورة ؟

وعلى هذا السؤال اجيب ان كل حركة ثورية تستهدف ضرب الاستعمار وتدمير نظام الاقطاع وتحقيق وحدة الامة العربية في اتحاد فيدرالي هي جزء لا يتجزأ من الثورة العالمية ، وهي خطوة أساسية على الطريق الصحيح لتجسيد الدولة العالمية ، فكفاح قبائل « الماو الماو » في افريقيا ضد الاستعمار والحركات التحررية في المستعمرات ، جميع هذه الامور هي معارك حيوية من معارك الثورة العالمية ، لذلك يجب على كل امة ان تكرس جهودها لتحقيق الاهداف الثورية الأنفة الذكر (التحرر من الاستعمار والاقطاع وتحقيق الوحدة القومية) في بلدها وان تمديد العون اذا استطاعت اليه سبيلاً ، الى الشعوب الاخرى في المستعمرات والبلدان التي يسودها نظام اقطاعي او قبلي .

والآن اعود ثانية الى السؤال الذي انطلقت منه عما اذا كانت الاشتراكية قابلة للتحقق في مجتمع قومي ؟

انني اريد ان اقرر هنا ان القومية وتجسيدها في اطار حقوقي هو الدولة الاتحادية ، لا يعتبر ابدأ المرحلة النهائية من مراحل جهاد الفرد الانسان ، بل انها مرحلة في طريق الانسان الى تحقيق الانسانية وتجسيدها في اطار حقوقي هو الدولة العالمية الاتحادية ، كما وانه لا يمكن ابدأ للاشتراكية ان تتحقق قولاً وعملاً الا في ظل مجتمع الدولة العالمية وليس في ظل التعاون بين البشرية الموزعة الى امم في دول مستقلة . لذلك فان الحركات القومية عندما تشن حرباً لا هوادة فيها او لين ضد الاستعمار والاقطاع فانما تتوخى من وراء حريها هذه ، من حيث لا تدري تحقيق الدولة العالمية .

ان العالم اليوم وعقب التطور الهائل الذي طرأ على اوضاعه الاقتصادية والاجتماعية قد غدا « عالماً صغيراً » ، واصبحت مصالح كل امة متشابكة ومصالح الامم الاخرى ، على صورة لا يمكن ان تنفصم لها عروة او وشيجة ، وان اية ازمة قد تحدث في اي بلد من بلدان العالم تؤثر تأثيراً مباشراً وفعالاً على جميع بلدان العالم .

لذلك لم يبق امام الامم من وسيلة او سبيل ، لتدعيم رفاه الفرد الانسان عن طريق الاشتراكية الا في اللجوء الى تحقيق الدولة العالمية بغية ايجاد هيئة فعالة تقوم بتنسيق الاقتصاد العالمي تنسيقاً يحنبه اولاً الأزمات ، ومن ثم يسوده مبدأ سد حاجات البشرية لا مبدأ الربح او حتى مبدأ الربح القومي ذي الطابع الاشتراكي .

كلنا نعلم ان العلم قد وضعنا اليوم على ابواب الكون الكبير ، نعم الكون الكبير في كل أنظمتة الشمسية ، وفي كل انهر مجراته ، ولا سبيل للانسان للوصول الى هذا الكون الكبير الا في تضافر جهود الامم وقيام دولة عالمية تنسق هذه الجهود والإمكانيات . لذلك كله فان الحركات القومية تستنفد اغراضها السياسية والاجتماعية حالما ينتهي عهد الاستعمار او بالاحرى حالما يئني عهد الاستعمار وتدمر كل مشتقاته . أضف الى ذلك ان منع الحروب ، والحروب كما نعلم قد اصبحت رهبة لا يستطيع العقل البشري ان يقدر مدى الأضرار التي تلحقها بالانسانية ، لا يتم الا عن طريق الدولة العالمية ، هذه الدولة التي ستجنب العالم الازمات الاقتصادية وستجسد بالتالي المجتمع الاشتراكي . لذلك كله اؤمن ايماناً مطلقاً وعميقاً بأنه لا يمكن للاشتراكية ان تتحقق في مجتمع قومي ، وذلك لأن ظروف تحقيق الاشتراكية تحققاً كاملاً غير منقوص لا تخضع أبداً للدولة القومية في المجتمع القومي ، لأنها تخضع وتخضع من قبل جميع الأمم في جميع المجتمعات الموحدة الهدف في تحقيق الاشتراكية في ظل الدولة العالمية الاتحادية .

يقول البعض ان القومية هي آخر المراحل التي يمكن أن تبلغها الأمة

والانسانية معاً ، وان الاشتراكية من الممكن تحقيقها في مجتمع قومي وتدعيمها عن طريق التعاون والأمم الأخرى ، غير أن التاريخ قد علمنا ان التعاون المنبثق عن الافانية القومية لا يمكن ان يعمر او يدوم على المدى الطويل ، فالتعاون يقوم على أساس التبادل المتكافئ للمنافع ، ومثل هذا التبادل من المستحيل تحقيقه نظراً للتباين الواضح في توزيع الطبيعة لثرواتها ومواردها بين مختلف البلدان والأقطار .

فهناك كما نعلم اقطار فقيرة وأخرى هائلة الثراء ، غزيرة الموارد ، لذلك فان رفاه الانسانية على ظهر هذا الكوكب لا يمكن ان يتحقق عن طريق تعاون الأمم بعضها مع بعض ، بل عن طريق اندماج الأمم بعضها في بعض وضرورة الانسانية في كل أمها وشعوبها عائلة واحدة متحدة موحدة جميع أعضائها متكافلون متضامنون .

نحن نعلم أن من أهم الاهداف الاشتراكية هو مكافحة الاستغلال ، لذلك فان من ابسط البديهيات أن تنهض الاستعمار ، إذ ان الاستعمار هو مركب يشع من الاستبعاد والاستغلال ، إنه الاستغلال في أبشع صوره ، غير أننا إذا قمنا في سلوك الاحزاب الاشتراكية الغربية من بريطانية وفرنسية وغيرها ودرسنا خطواتها في السياسة الدولية لوجدنا أن جميع هذه الاحزاب تعاضد الاستعمار وتعمل جاهدة لتدعيم الانظمة الرجعية لا في العالم العربي فحسب بل في جميع اقطار العالم ايضاً ، وهذه الاحزاب الاشتراكية الغربية لم تقم في الاصل إلا لحماية الرأسمالية . ولنسمع ما قاله الوزير الاشتراكي الفرنسي « سيناس » في مجلس الشيوخ الفرنسي وفي الجلسة المنعقدة في ١٢ مارس اذار سنة ١٩٢٧ ، لقد قال الوزير الاشتراكي « سيناس » ما ترجمته بالحرف الواحد :

« ان مهمة رب العمل لشيء عظيم ، وفي الامكان ممارستها بنبل ، فهل تظنون ايها السادة انني اريد القضاء على النظام الرأسمالي ؟! كلا ايها

السادة ! إنني أعلم جيداً أن في قدرة هذا النظام أن يقوم بخدمة كبيرة خير قيام ، واعتقد أن من مصلحة الطبقات العاملة نفسها أن تلائم بينه وبين ضروريات الحياة الحديثة » .

كما واثنا لا شك نذكر أن « غي موليه » الاشتراكي هو الذي شن حملة العدوان على مصر لتدعيم الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، كما وأثنا نشهد مواقف حزب العمال البريطاني من حركات التحرر في المستعمرات البريطانية في كل من افريقيا وجنوبي شرقي آسيا والمستعمرات البريطانية الواقعة في المحيط الهادي ، لذلك فإن الاشتراكية غير قابلة للتطبيق والتحقق من الوجهة التحررية الانسانية في نطاق الدولة القومية ، إذ أن غريزة العدوان والاثرة والاثنية تبقى في نطاق الدولة القومية اللب والموجه والجوهر .

كما وأن هناك نقطة بارزة وحيوية أخرى ، وأعني بها انقسام السوق الدولية ، هذا الانقسام الناشئ عن سياسة انقسام العالم سياسياً إلى معسكرين ، المعسكر الشيوعي والمعسكر الرأسمالي ، وسيكون لهذا الانقسام كما يدرك القارىء ولا شك ، نتائج وبيلة وخيمة العواقب على الاقتصاد العالمي ، وخاصة على البلدان الرأسمالية المتقدمة (Advanced) ومن ثم على البلدان المتخلفة اقتصادياً كبلدان الشرق الاوسط ، لذلك فإن تحقق الاشتراكية تحقّقاً كاملاً لا يمكن أن يتم إلا في حالة قيام سوق دولية موحدة ، وقيام السوق الدولية الموحدة مرهون بقيام الدولة العالمية .

وقبل أن أختم بحثي في الاشتراكية اعود لأؤكد أن القومية وتوحيد الامة في دولة إتحادية هي خطوة ثورية تقدمية في الطريق نحو الاشتراكية الواقعية . كما وأنني أعود لأؤكد أن حركة القومية العربية هي اليوم وسبق في أيام قادمة حركة ثورية تقدمية حتى تتحقق وحدة الامة العربية ، وتتخذ شكلها الحقوقي في الولايات العربية المتحدة . أما شروط قيام الولايات العالمية المتحدة فهي تتلخص كما أرى فيما يلي :

- ا - قيام القوميات المتحررة المستقلة .
- ب - زوال الاستعمار بكل اشكاله من انتهازية واحتكارية .
- ج - زوال الانظمة الرجعية من قبلية واقطاعية ورأسالية .
- د - المساواة بين الامم والشعوب .
- هـ - اعتماد مبدأ العطاء لا مبدأ التبادل المتكافئ في تعاون الشعوب والامم بعضها مع بعض .

عندما تتحقق الشروط الخمسة الآتية الذكر يصبح تجسد الدولة العالمية على
ظهر هذا الكوكب امراً لا مناص منه او مفر .

الشيء في ذاته

الديالكتيكية ، المادية الديالكتيكية ، المادية التاريخية

١ — مدخل

إن الشيوعية هي وفق المفهوم الماركسي المرحلة النهائية التي يبلغها المجتمع في تطوره ، حيث تنتفي في هذه المرحلة من المجتمع جميع المتناقضات وتزول الطبقات وتفتنى الدولة . ويصف كارل ماركس طريق المجتمع إلى الشيوعية في بدء « البيان الشيوعي » ويقول بما معناه :

« إن تاريخ كل مجتمع عرفته العصور حتى أيامنا هذه ، هو تاريخ نضال الطبقات ، وليس نضال الطبقات هذا المحرك الأكبر للتاريخ ، إلا نقل « نضال المتناقضات » الذي يُكوّن دينامية كل واقع ، إلى صعيد المجتمع البشري . فالجدل مشبك في كل الكائنات على اختلافها . إنه بين الطبقات الاجتماعية المتباينة ، وبين الماضي والمستقبل ، بين مذهب إنتاج تخطاه التقدم التكنيكي ، وبين مذهب انتاج آخر سيطلع به التطور التاريخي ، بين طبقة رجعية وطبقة أخرى تقدمية . إنما يجب أن تتفوق الطبقة التي تجسد التقدم على دعاة الرجعية . ولا تحل الأزمة الناجمة عن الصراع إلا بتخطي الحالة الحاضرة في « مركب » جديد تتضافر إرادة الانسان الحرة مع قوى الطبيعة على تحقيقه ، فالقضية (These) في الحقل الاجتماعي هي نضال الطبقات ، تنفيها ديكتاتورية البروليتاريا ، فتقضي على الطبقات في المجتمع ، وتكون النقيض (Antithese) ، ثم يعقبها المجتمع الشيوعي الذي تنتهي عنده حقبة ما قبل التاريخ الانساني ، فتتصالح فيه القضية مع نقيضها في

مركب Synthese جديد لا أثر فيه للتناقض ولا للنزاع ، مركب يسوده الأمن ويغمره الاطمئنان .

تنبع الشيوعية من فلسفة مناقضة ومناهضة للفلسفة المثالية وهي « فلسفة المادية الديالكتيكية » ، هذه الفلسفة التي تفسر الكون ونشوءه وتطوره تفسيراً مادياً يعتمد العقل والعلم والمنطق الادوات الوحيدة في فهم الكون وتحليل أحداثه . وعن الفلسفة المادية الديالكتيكية تنشأ حسب المفهوم الماركسي « المادية التاريخية » ، ووظيفة المادية التاريخية هي تفسير وتحليل تاريخ الاجتماع والمجتمعات البشرية ، ومن ثم تبين النتيجة النهائية التي ستؤول اليها المجتمعات البشرية ، هذه النتيجة المثلة بالشيوعية .

إذن فلا طريق لنا لفهم الشيوعية سوى دراسة الديالكتيكية ، فالمادية التاريخية ، فما هو الديالكتيك ؟
يعرف لينين الديالكتيك بقوله :

« ان الديالكتيك بالمعنى الخاص للكلمة هو درس المتناقضات في ماهية الاشياء نفسها » .

ان الديالكتيك ليس بالفلسفة الجديدة ولا بالنظرة الجديدة الى الكون ، فلقد كان للاولين شأن كبير في بحثه ، وخاصة فلاسفة اليونان ، وعلى الاخص هيرقليطس الذي وصف بأنه فيلسوف التغير وعدم الثبات . ولنلاحظ الآن مبدأ التناقض الذي يسود فلسفة هيرقليطس في الجمل الآتية :

« ان الاتحادات هي الاشياء الكاملة وغير الكاملة ، انها تتوافق والاختلاف ، انها الانسجام وعدم الانسجام ، عن جميع الاشياء يصدر الواحد ، وعن الواحد تصدر جميع الاشياء » .

ويقول هيرقليطس في مكان آخر :

« اننا ننزل ولا ننزل في النهر نفسه ، وان الطريق التي ترتفع والتي تنحدر واحدة وهي هي نفسها » .

بما ورد يتضح ان هيرقليطس يرى ان الكون يتألف من عناصر متناقضة في جوهرها، وان هذا التناقض هو الاساس في الحركة، وفي التبدل الازلي الابدى والتغير المستمر، وهذا هو اساس الديالكتيك وجوهره.

وهيرقليطس يحظى باعجاب واحترام فيلسوف الديالكتيك الحديث « هينغل »، إذ ان هينغل يقول عنه :

« ما من قضية نادى بها هيرقليطس الا تبينتها في كتابي المنطق » كما ويقف « لينين » مبهوراً مذهولاً وهو يقرأ كلمات هيرقليطس التالية :

« العالم هو واحد لم يخلقه اى اله او انسان »، وقد كان ولا يزال وسيكون شعلة حية الى الابد تشتعل وتنفىء وفقاً لقوانين خاصة معينة .
ويعلق لينين على هذه النظرية ، نظرية هيرقليطس ، بقوله :
« ياله من شرح رائع لمبادئ المادية الديالكتيكية ! »

ولا شك ان القارىء يدرك ان هيرقليطس حينما قال ان العالم كان ولا يزال وسيبقى الى الابد « شعلة حية » فانما كان يعنى بان العالم متحرك ابدأً ، وحر كته وسكونه يتان وفقاً لقوانين خاصة ، وهذا هو الديالكتيك بعينه .
ويفسر اتباع المدرسة الافلاطونية الحديثة نشوء الكون وتطوره على ضوء الديالكتيك الصوفي ايضاً فيقولون :

« الواحد كان اصل الموجودات ، والواحد خالد لا يتغير ، والموجودات من « العقل الاول » الى الروح الكلية ، الى العقل الثانى ، واخيراً الى الارواح الفردية التي تتعدد بمخالطتها للمادة ، وتنفرد ، جميعاً تفيض عن الواحد ، عن طريق مشاركة متسلسلة بصورة عامة » .

بما ورد يظهر لنا جلياً المنبع الذي استقى منه « هينغل » جوهر وقوانين ديالكتيكه الثلاثة ، التي سنجىء على بحثها فيما بعد ، واعني بالجوهر هذا :

القضية These والنقيض Antithese والمركب Synthese .

« فالعقل الواحد » هو القضية ، والارواح التي تتعدد بمخالطتها للمادة هي

النقيض . غير ان العقل حسب مفهوم هؤلاء الديالكتيكيين المتصوفين يفتش عن الاتحاد الوحدة بين القضية ونقيضها، وهم يرون ان الوسيلة الى تحقيق الوحدة المذكورة هي « الوجد » (حلقات الذكر) حيث يتمكن العقل عن طريق « الوجد » من الاندماج في الله وبهذا ينشأ المركب .

ويستطرد هؤلاء الى القول ان المركب الناشئ عن اندماج العقل في الله ومن ثم عن صيرورته الله ذاته . اقول ان هذا المركب ليس خالياً من التناقض في داخله ، فالعقل والله ببقيان داخل هذا المركب (الناشئ عن الوجد) جوهرين متميزين، ومن ثم يستطرد هؤلاء الى القول بان التناقض الواقع في صميم الاشياء يبلغ ذروته في الله، وان الانسان عندما يتحدث عن الله يجب ان يستعمل في لفته الكثير من الكلمات المتناقضة .

وقد كان لهذه النظرية « الافلاطونية الحديثة » اثر بالغ في توجيه الديالكتيكية الهينغيلية، ومن ثم في تطعيم ديالكتيك هيغل بالمثالية ، هذه المثالية التي ادت في النهاية الى بروز المادية الديالكتيكية الممثلة في الماركسية .

اضف الى هذا ان الديالكتيكية (المثالية) اثرت كثيراً في المسيحية ونشأ عن هذا الاثر ما يعرف بالجدل المسيحي، وكان من ابرز فلاسفة الجدل المسيحي «دونيس الاريوباجي» . ويقال ان القديس بولس قد هداه الى المسيحية، وكان دونيس الاريوباجي يرى ان الله هو ذرة روحية Monade توحد بين جميع الذرات الروحية، وهو « عقل كلي » لا يعقل (لاحظ الديالكتيك التناقض) وكلام لا يوصف ، معصوم عن ان يكون عقلاً وفهماً واسماً ، وليس وجوده على نسق اي وجود ، انه السبب الوجودي لكل وجود ، بل انه خارج كلياً عن مقولة الوجود، لانه قائم فوق كل ماهية ، وذلك حسب الوحي الذي صدر عن ذاته .

ويقول الديالكتيكيون المسيحيون انه يتوجب علينا ان نطلق على هذين الحكيمين المتناقضين :

١ - ان الله من جهة اولى الوجود الخالص الذي يحده اللاوجود ، انه اصل

كل موجود .

٢ - ان الله ليس وجوداً مما نستطيع ان ننته به ، لذلك ينصح الديالكتيكيون المسيحيون بوجود عدم اللجوء ابدأ الى اللاهوت الايجابي الذي يتوخى اثبات وجود الله ، ويقولون بان اللاهوت المصيب هو اللاهوت السلبي الذي يتوقف عند عتبة انكار الادلة والبراهين لقضية وجود الله .
ويسترس هؤلاء في قولهم انه عندما تصبح القضية قضية معرفة الله ، فان خير معرفة لهذه القضية هو معرفتنا باننا لا نعرف شيئاً ، ويسمي القديس اوغسطين هذه المعرفة « المعرفة بالجهل » .

وقد لاقت الديالكتيكية المسيحية المنبعثة عن الافلاطونية الحديثة انتشاراً واسعاً في المانيا خلال القرن الرابع عشر ، وكان ابرز من جال في هذا الحقل راهب دمينيكي يدعى « جان اكهارت » (١٢٦٠ - ١٣٢٧) وقد حاول هذا الراهب ان يثبت وجود الله ، وذلك وفق « ثالث الديالكتيك » على الشكل الآتي :
القضية - These اثبات وجود الله الذي هو الوجود ذاته .

النقيض Antithese الله ليس شيئاً لولا مخلوقاته وهو غير قابل للمعرفة ليس بالنسبة اليها فحسب ، بل بالنسبة الى نفسه ايضاً (فانه كما يقول « اكهارت »)
لم يكن لها قبل الخلق وحيثما خلق المخلوقات التي هو وجود لها خلق بذلك نفسه) .
المركب Synthese تتخلى الروح عن نفسها لتتلاشى في الله عن طريق الاتحاد الصوفي .

مما ورد يتضح تماماً ان الديالكتيك حتى في المسيحية يعني كما قال لينين درس المتناقضات في ماهية الاشياء . غير ان القاريء لا شك يرى ايضاً ان جميع انواع الديالكتيك السابقة للديالكتيك الهيغلي والديالكتيك المادي الماركسي كان ابدأ يعمل البحث في اثر انعكاس دياكتيك الطبيعة على المجتمع والتاريخ . وسبب اهمال هذا البحث الجوهري الذي استكماله فيما بعد هيغل فماركس وان ناقض الاول الاخير ، اقول ان سبب هذا الاهمال يعود اولاً واخيراً الى كون الديالكتيك فيما سبق لهيغل وماركس ركز همه على حل مشكلة الوجود وقضية الله . ولما كان الانسان هو ايضاً جزء من الوجود لذلك اصبح من المحتوم وفق القوانين

الديالكنتيكية التي تقول بالحركة ان يمتد الفكر الانساني الى بحث انعكاسات دياالكنتيك الطبيعية على المجتمع البشري وعلى التاريخ، لهذا ووفق قانون الديالكنتيك كما قلت سابقاً كان لا بد من بروز مفكرين آخرين يصلون ويحولون في هذا الحقل كهيجل وماركس وانكلز وغيرهم .

ب — فلسفة هيجل

يعتبر هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) والد الديالكنتيك الحديث، وذلك لان هيجل هو اول من اقام الديالكنتيك على اسس علمية ثابتة ، وخطا بالديالكنتيك الى الحقل العلمي وجعل منه فلسفة ايجابية لا تقف عند السفسطة او الجدل المجرد او عند عرض القضية ونقيضها، بل تتعدى هذا جميعاً الى حل القضية وفق المفهوم الهيجلي (اقول وفق المفهوم الهيجلي) وذلك لان الديالكنتيك كان حتى هيجل محصوراً في افكاره ومناقشاته وفلسفاته ضمن دائرة « فن البرهان او فن دحض البرهان » . وهذا ما معناه ضمن دائرة سلبية غارقة في السلبية، اذ ان هذه القاعدة لم يكن بإمكانها ان تخرج الى الميدان الايجابي ، واعني بهذا الميدان ميدان حل المناقضات وذوبانها وتلاشيها في المركب Synthese لهذا غدا الديالكنتيك على يدي هيجل « فن اذابة المتناقضات وتلاشيها » .

قلت فيما سبق من بحثي ان هيجل تأثر تأثراً بالغاً بالديالكنتيكية الصوفية وان هذا التأثير جعل الديالكنتيك الهيجلي مع كونه قد بني على اساس علمي ينحرف او بالاحرى يتجه بهيجل نحو المثالية في تفسير الطبيعة وشرح اثر دياالكنتيكها على المجتمع الانساني. وهذا الاتجاه يجعل هيجل احد الافراد البارزين المحدثين من زمرة فلاسفة الديالكنتيك الافلاطوني الحديث، وبصورة ادق احد فلاسفة الديالكنتيك المسيحيين، ولذلك فاننا اذا اردنا ان نصدر حكماً عادلاً على هيجل فان حكمنا سيكون ان هيجل لم يكن ثورياً في فلسفة الديالكنتيك اي انه

لم ينحرف بمجرى الديالكتيك انحرافاً جذرياً ومعاكساً تماماً لمجرأه السابق ، بل
انما سار في المجرى ذاته الذي سارت فيه الافلاطونية الحديثة والمسيحية . ولنسمع
الآن ما يقوله هيغل وما تقوله المسيحية :
يرى هيغل ان الفكرة Idea هي خالق الواقع وصانعه ، وان الواقع ليس الا
الشكل الحادثي للفكرة .

ويقول يوحنا في انجيله وفي السطور الاولى من الاصحاح الاول ما يلي :
« في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله . هذا كان في
البدء عند الله ، كل شيء به كان ، وبغيره لم يكن شيء مما كان » .
نحن نعلم ان الفكرة تسبق الكلمة منطقاً ، فالفكرة ثم الكلمة ، ولذلك فنحن
اذا استبدلنا كلمة « الكلمة » التي جاءت في انجيل يوحنا بكلمة الفكرة وهذا
الاستبدال سيكون صحيحاً من وجهة تسلسل الافعال « الفكر فالكلمة » وقلنا :
« في البدء كانت الفكرة ، والفكرة كانت عند الله وكانت الفكرة الله ، هذا
كان في البدء عند الله ، كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان » .
اقول اذا قمنا بهذه العملية البسيطة نرى ان هيغل لا يكتفي في ديالكتيكة
بالديالكتيك المسيحي فقط بل انما يذوب فيه ويتلادى ثلاثياً كلياً .

اما فضل هيغل كما قلت سابقاً فانما ينحصر في امرين : الاول ابراز ما
للتناقض من اهمية حيوية في الكون ، والثاني قانونه القائل باذابة التناقض في
المركب .

يقول هيغل : « ان ما هو واقعي هو عقلي وما هو عقلي هو واقعي » وانه
لذلك يجب ان يكون الواقع جميعه في مرتبة الفكر ، وان الفكر متأكد من انه
سيجد نفسه في العالم من جديد ومن ان العالم يجب ان ينسجم معه ومن ان
العقل الذي ينبغي له ان يبحث عنه في العالم ليس الا العقل ذاته .

ويقول هيغل ان هناك عقليين : الاول عقل مجرد هو عقل الرياضي الذي يعمل
في مجال التجريدات ويبقى بذلك خارج الواقع ، والثاني عقل مشخص هو عقل
العالم الفيزيائي او المؤرخ الذي يعمل في مجال الواقع عن طريق اصطناع الحيلة

بغية مشاهدة صيرورته .

ويرى هيغل ان العقل هو روح الكون ، وهو الاساس العام للوجود ، وان المخطط يندمج في الميتافيزيقيا التي هي كما يقول هيغل (الميتافيزيقيا) علم ادراك الاشياء بشكل افكار ، وتعتبر هذه الافكار انها تعبر عن ماهية الاشياء . كما ويرى هيغل ان التفكير من حيث هو « التفكير الموضوعي » هو المبدأ الباطني للكون .

ويستطرد هيغل في عرض فلسفته فيقول في الموسوعة ٢٤ :

« كما ان التفكير يكون جوهر الاشياء الخارجية ، بذلك يفتقد (التفكير) الجوهر العام للموجودات الروحية . ففي كل حدس انساني يوجد تفكير . والتفكير كذلك هو العنصر العام لكل تصور ولكل ذكرى ، كما انه العنصر العام لكل فعل ارادي ، وبصورة عامة لكل فعالية نفسية ولكل رغبة . فانواع النشاط النفسي المختلفة هذه ليست سوى اشكال للتفكير تتأرجح بين الوضوح والابهام . »

ويستطرد هيغل فيقول :

« فالتفكير من هذه الوجهة يبدو لنا على شكل مغاير لما اعتدنا قوله من ان ملكة التفكير هي احدى الملكات التي يتألف منها كياننا النفسي كالحدس مثلاً او التصور او الارادة الخ ... فاذا كننا نعتبر ان التفكير هو في الحقيقة المبدأ العام لكل وجود ، طبيعياً كان ام روحياً ، فهو اذن يشمل جميع الاشياء ويهيمن عليها ، وهو في نظرها اساس كل شيء . »

وانظر مدى تأثر هيغل بالديالكتيكية الصوفية المسيحية ، وذلك عندما يقول هيغل في الموسوعة الفلسفية ٢٤ ما يلي :

« ان الاله هو وحده المطابقة الحقيقية بين التصور الذهني والواقع . »

ج - دياكتيك هيغل

يقول هيغل ان الديالكتيك يقوم في كل المجالات وتحت جميع الاشكال الخاصة لعالمي الطبيعة والروح . فهو يقوم مثلاً في حركة الاجرام السماوية ، وان من طبيعة احد الكواكب اذا وجد الآن في مكان ما ان يوجد ايضاً في مكان آخر . فندرته على الحركة التي هي خاصة به ، هي التي تمنحه ان يكون له هذا الوجود الآخر (وذلك بالنسبة الى المكان الآخر) .

كذلك يوجد في العناصر الفيزيائية صفة جدلية ، وما صفتها الجدلية إلا تلك الظاهرة المناخية ، بل ان نفس المبدأ هو الاساس لكل العمليات الطبيعية ، وهو في الوقت ذاته ما يجعل الطبيعة تندفع من أجل التعالي على ذاتها ، وذلك كي تنتج الوعي والروح بالاضافة الى الحياة .

اما فيما يختص بوجود الجدل في عالم الروح او بالاحرى في عالم التشريع وعالم الاخلاق فانه يكفي هنا ان نتذكر كيف ان الدرجة القصوى لحالة ما من الحالات (العقدة وسنشرحها فيما بعد) او النوع من النشاط ، تنقلب عادة بموجب التجربة المشتركة الى ضدها .

وهذا النوع من الجدل معروف في الكلمات الماثورة التالية :

« إن الافراط في العدالة هو غاية الظلم » .

ويستطرد هيغل فيشرح هذه النظرية قائلاً :

إنه اذا بولغ في التقيد بالقانون المجرد ، فستؤدي هذه المبالغة الى الظلم . كذلك نحن نعرف ، في المجال السياسي ، ان هذين الحدين في تناهيهما ، وهما الفوضوية والاستبداد ، يؤدي عادة احدهما الى الآخر .

ويستوكل هيغل في عرض فلسفة دياكتيكيه فيتناول اثر الديالكتيك في نفس الفرد واخلاقه فيقول :

إن الشعور الجدلي على الصعيد الفردي في المجال الاخلاقي تجده في هذه

الكلمات الماثورة والمعروفة جيداً :

« ان الفرور يسبق الانهيار - وسريعاً ما تثقل السكين الحادة جداً »
فالحساسية الجسدية والاجلاقية لها ايضاً جدلها . فنحن نعرف ان الدرجات
القصى للألم والفرح تنقلب احدهما الى الاخرى (لاحظ زيادة الكم تؤدي الى
تغير في الكيف) فالقلب المفعم بالفرح يعبر عن فرحه بالدموع ، وغالباً ما يحدث
ان الحزن العميق يعبر عن نفسه بإبتسامة .

ويرى هيغل ان جميع الاشياء هي ذاتها متناقضة ، وان التناقض هو مصدر
كل حركة ومنبع كل حياة ، وانه هو اكثر المبادئ (مبدأ التناقض) تعبيراً
عن حقيقة الاشياء وماهيتها . ويقول هيغل بان الشيء لا يتحرك إلا لأن في صميمه
تناقضاً تنتج عنه قوة ونشاط فاندفاع . ويقول هيغل بان الشيء لا يتحرك لانه
يكون مرة هنا واخرى هناك ، بل لانه يكون في اللحظة الواحدة نفسه
هنا وليس هنا ، لانه يكون ولا يكون في آن واحد في نفس المكان .

ويستطرد هيغل فيستنتج القواعد الفلسفية التالية :

- ١ - ان الفكرة تؤلف المضمون المشترك للطبيعة والروح .
- ٢ - إن الفكرة (Idea) لا توجد في الطبيعة الا كعضو خارجي
- ٣ - ان الطبيعة يمكن اكتشافها في الضمير الديني .
- ٤ - ان الطبيعة في رأي الضمير الديني هي تجل للذات الالهية .
- ٥ - ان الطبيعة لا يمكنها ان تأخذ وعياً عن ماهيتها الالهية .
- ٦ - ان الروح وحدها هي التي يمكنها ان تعي الماهية الالهية للطبيعة .
- ٧ - ان الله يطلع ماهيته ويجعلها تتجلى في الطبيعة وبواسطتها .
- ٨ - ان الكون لا تتصرف به المصادفة ولا الاسباب الخارجية العرضية ، بل
تدبره العناية الالهية .

ويرى هيغل في العقل الجوهر الذي يكن ويتكون فيه وجود كل حقيقة ،
وان العقل وحده هو الذي يوفر للحقيقة استمرار الوجود ، كما يرى هيغل ان
العقل ليس عاجزاً الى حد لا يمكنه الوصول الى المثل الأعلى ، الى وجوب الوجود ،

وانه لا يستطيع ان يوجد الا خارج الواقع ، فالعقل هو المضمون اللانهائي ، أي انه كل ماهية وكل حقيقة . أضف الى ذلك ان العقل لا يحتاج ، مطلقاً ، كالفعالية المحدودة ، الى مواد خارجية ووسائل يستمد منها الغذاء والمادة الضرورين لنشاطه ، فهو - أي العقل - يعيش على جوهره الخاص ، هذا الجوهر الذي يصنعه من اجل نفسه . كما وان العقل لا يفترض شيئاً آخر غير ذاته وغايته ، التي هي الغاية المطلقة . ويرى هيجل ان العقل لا يتجلى فقط في العالم المادي ، بل إنما يتجلى ايضاً في العالم الروحي الذي يمثل في التاريخ ، وان هذه الفكرة - Idea - هي الحق والابد والقدرة المطلقة ، وانها تتجلى في الكون ، وهي وحدها (Idea) التي تتجلى فيه بكل عظمة ومجد .

ويستطرده هيجل في حديثه عن العقل فيقول بانه هو الذي تتألف منه القوانين الثابتة التي تحدث بموجبها حركة النظام الشمسي ، وان الشمس والكواكب التي تدور حولها ليس لديها وعي لحركاتها ، وان الانسان هو الذي يستنتج هذه القوانين من الظواهر الطبيعية وهو وحده الذي يعرفها . وعندما يصل هيجل الى هذا الحد ، وقبل ان يفرق في العقلانية والمادية يعود حالاً الى مثاليته وصوفيته المسيحية فيقول :

« ولكن اذا كنت قد تكلمت عن بدء ظهور هذه الفكرة ، ألا وهي ان العقل يدبر الكون ، واشرت الى ما اعترضها من نقص ، فما ذلك الا لأن هذا النقد ينطبق بتمامه على ما نعرفه لهذه الفكرة (Idea) من شكل آخر ، ألا وهو ايماننا بهذه الحقيقة الدينية من حيث ان الكون لا تتصرف به المصادفة ، ولا الاسباب الخارجية العرضية وإنما تدبره عناية هي العناية الالهية . »

ويعرف هيجل العناية الالهية بالحكمة المقابلة للقدرة اللانهائية التي تحقق غاياتها ، اي غايات الكون النهائية المطلقة العقلية او العقل ، فالعقل على حد تعبير هيجل هو التفكير الذي يحقق ذاته بكل حرية .

ويرى هيجل ان العناية الالهية هي التي ترسم وتحدد للتاريخ مجراه ، ويسمى هيجل عمل العناية الالهية هذا « بمخطط العناية » ويقول هيجل ان هذا المخطط

يبقى خافياً عن انظارنا، وانه لمن الخسارة بمكان ان نحاول ادراكه .
ولا شك ان القارئ يرى هنا التوافق للتمام بين هيغل وبين نظرية « المعرفة بالجهل » (Doctrine of Ignorance) واللاهوت السلبي الذي فادت به الديالكتية المسيحية للصوفية .

ويستطرد هيغل الى تفسير التاريخ فيقول : ان التاريخ هو نتاج العقل الخلاق ، وان معرفتنا تهدف لان توضع لنا : ان الحكمة الخالدة ، كما انها استطاعت ان تدرك القصد من تحقيق غاياتها في مجال الطبيعة ، كذلك ادركته في مجال الروح ، هذا الروح الذي يؤثر في الكون ويتحقق فيه ، فتأملنا في الوجود هو كناية عن نظرة الهية Theodicy او هو تبرير لوجود الله .

اما نظرة هيغل في الخير والشر التاريخيين فهي نظرة تفاؤلية مثالية اكثر منها ديالكتيكية بالمعنى الحرفي للديالكتيك ، من حيث ان الزيادة في « الكم » تؤدي الى تغيير في « الكيف » ، لاذ ان هيغل يقول بان كل ما في الوجود من شر ، بما فيه الشر الاخلاقي ، لا بد من ان يتعقل (لاحظ كلمة يتعقل ، وقابلها بكلمة ينتفي التي هي التعبير عن الفعل الجذري الثوري للديالكتيك) كما وانه لا بد من المواءمة بين الروح التي تفكر ، وبين « السالب » (الشر) . ويقول هيغل بان وسيلتنا الى تحقيق هذه الالفة بين الروح و « السالب » ، فالسالب هي معرفة « الموجب » الذي فيه يتلاشى السالب ، فالسالب هو لحظة تابعة للموجب (لاحظ هذا التعبير) وبما انها كذلك فان « الموجب » متعال عليها . وعندما نأخذ وعياً عن غاية الوجود النهائية (وهي خير في جوهرها على حد ايمان هيغل) ندرك أن هذه الغاية قد تحققت فيه بالفعل ، وان الشر لم يتبدل الى جانب هذه الغاية بمقدار تبدي الغاية نفسها . وينتهي هيغل الى تقرير ما يلي :

ان مقولة « السالب » التي سبق الكلام عنها ، تريننا كيف ان ما هو نبيل وجميل في التاريخ يضحي به على هيكل « السالب » ولكن العقل لا يلبث ان يدفع السالب ليحل الغاية الايجابية محله .

و - قوانين الديالكتيك الثلاثة :

هناك ثلاثة قوانين منبثقة عن الديالكتيك الهيجلي تؤمن بها الماركسية في ديالكتيكها المادي وتبناها وهذه القوانين هي :

- ١ - قانون وحدة المتناقضات .
- ب - قانون العبور من الكمية الى الكيفية .
- ج - قانون نفي النفي .

١ - قانون وحدة المتناقضات :

ينص هذا القانون على ان التناقض هو ينبوع كل حركة وحياة ، وان الحركة الذاتية مستخلصة من هذا الواقع ، ويقول هذا القانون ان كل شيء يوازي ذاته وينفي ذاته معاً .

فالزهرة مثلاً هي زهرة ونفى للزهرة في الوقت نفسه ، وذلك بقدرة الزهرة على ان تصبح ثمرة . اما سبب حياة كل كائن فهو ان الكائن يحمل داخل ذاته متناقضات تتيح له التطور وتبعث فيه الحركة .

وقد اعجب لينين بهذا القانون فضمه الى المادية الديالكتيكية ، واشبعه دراسة وتطبيقاً في العديد من مجالات الفكر المادي الديالكتيكي . وسبب اعجاب لينين بهذا القانون - قانون وحدة المتناقضات - يعود الى أن لينين رأى ان هذا القانون يفسر عدم وجود « المحرك الاول » (الله) منطقاً وعقلاً ، وان وجود المتناقضات داخل عضو من العناصر هو الذي يؤدي بالتالي الى تفاعلها فتحركها فحركتها .

٢ - قانون العبور من الكمية الى الكيفية :

هناك نظرتان في هذا القانون ، النظرة الاولى وهي نظرة المادية الميكانيكية

التي تقول ان تطور العالم يتم نتيجة لتبدلات كمية محضة في الاشياء ، اما النظرة الثانية وهي النظرة الماركسية فنقول إن التطور يتم بتبدلات كمية ، وان كل تبدل يطرأ يكون بادىء ذي بدء ، كميًا ثم يزداد « كما » حتى يبلغ حدًا يدعوه هيجل « بالعقدة » حيث لا يستطيع ان يتحول فيه الشيء ويبقى في الوقت ذاته نفسه ، (أي لا يعود الشيء يوازي ذاته وينفي ذاته معاً) .

وهنا تنقطع العقدة او تنفجر اذا جاز لنا هذا التعبير (أي تحدث الثورة) فتتبدل « كمية » الشيء .

ويضرب الماديون الدياكتيكيون المثال التالي :

اذا سخّنت الماء حتى درجة مئة سنتيغراد ثم تابعت تسخينها فارتفعت حرارة الماء الى ما فوق المئة سنتيغراد فعندئذ لا يستمر الارتفاع الكمي في الحرارة ، بل انما يتبدل الماء الى بخار ، وبذلك يحدث تبدل كمي ، وهذا ما يحدث ايضاً اذا تدنت درجة حرارة الماء إلى تحت الصفر ، فانه عندئذ يتبدل « كمية » اذ يغدو جليداً .

٣ - قانون نفي النفي :

يحدد هذا القانون القضية والنقيض والركب : (These Antithese, Synthese) كمرحلة للتطور . فالقضية تنداعى تحت تأثير متناقضاتها التي تضج بالتنافر والخصام ، فتخلي المكان للنقيض الذي ينفي القضية ، ويحاول القضاء على المتناقضات غير انه (أي النقيض) لا يوفق في محاولته الى محو آثار المتناقضات القائمة في القضية فيرث عنها عناصر نزاع وصراع تطيح بكيانه ، فيقوم المركب على انقاضه ويبني هيكله من العناصر الطيبة للقضية والنقيض معاً . وبهذا ينفي المركب النقيض الذي بدوره ينفي القضية ، وبذلك يصبح المركب نفي النفي . ويضرب على ذلك المثل التالي :

البذرة التي تصبح شجرة، فالشجرة التي تعطي الثمرة هي نفي للبذرة، والثمره التي تحملها الشجرة هي نفي للشجرة، إذن فالثمره هي نفي نفي .

هذه لمحة سريعة عن فلسفة هيغل الديالكتيكية ، وقد سميت كما يلاحظ القارئ ان أعطي لمحة خاطفة عن جميع آراء هيغل في الله ونشوء الكون والاخلاق والعقل والتاريخ في مجراه وتطوره، وسبب ذلك ان الانسان لا يستطيع ان يفهم الماركسية في ماديتها الديالكتيكية وماديتها التاريخية دون ان يلم بديالكتيك هيغل وذلك لانه من هيغل، ومدرسته تفرعت النظريات الديالكتيكية الحديثة من يمينية ويسارية كالماركسية .

ان كارل ماركس يعتبر النشأ الاول على المدرسة الديالكتيكية الهيجلية وعلى جوهر فلسفتها ، وذلك في نظركه الى ردود الافعال الناشئة عن التناقض الذي هو في نظر الفلسفتين الهيجلية والماركسية أساس كل حركة وحياة وتطور في الحياة . و كارل ماركس مع نقده الشديد للفلسفة الهيجلية يقر ويعترف بحيل هيغل وفضله في هذا المضمار ، وهو يقول بصريح العبارة بانه اقتبس من الفلسفة الهيجلية النقاط العلمية المجردة ونحن لا نستطيع مع عدم اتفاقنا وهيغل في الكثير من ابواب فلسفته إلا ان نقرر ان هيغل كان من ابرز فلاسفة عصره ان لم يكن ابرزهم جميعاً ، وانه أحد الفلاسفة القلائل الذين ساهموا مساهمة فعالة في تخطيط وبناء الفلسفات الحديثة للدول البرجوازية ، كما وأن الرء بارز وفعال في النظريات الاشتراكية المثالية كالاشتراكية البريطانية وغيرها .

اما ما أخذنا الرئيسية على « هيغل » فهي تصب في ان فلسفة هيغل قد أدت خدمات جلتي للطبقات البرجوازية المتوسطة والكبيرة ، وقد عملت على بليلة افكار الطليعة من « الانتلجنسيا » وساعدت على تدعيم النظام القيصري الاستبدادي، وتدعيم الدولة الالمانية التي كانت تشرف عليها آنذاك الارستقراطية والارمالية والعسكرية الالمانية . وكان هيغل ينظر الى الدولة كجوهر مقدس دون ان يحدد شكل الدولة او يحدد اتجاهاتها ومذاهبها الاجتماعية ذات المحتوى الانساني، ولهذا لاقت فلسفة « هيغل » تحبيذاً وترحيباً شديدين من قبل القيصرية

الامانية التي اعتبرتها الفلسفة الرسمية للدولة .

ومن المؤسف ان يكون فيلسوف كبير كهيجل نسي او تناسى العمال والفلاحين كطبقة تشكل الاكثرية الساحقة من الامة ، ونسي او بالاحرى تناسى دورها الهام والحيوي في التاريخ ، ونسي او بالاحرى تناسى أبسط حقوقها في الحياة ، اذ ان مثاليته وایمانه بوجود ما اسماء « بمخطط العناية الالهية » قد جعلت من فيلسوف الصراع والديالكتيك فيلسوفاً يؤمن بالقدر والقدرية .

لقد كانت تنتاب « هيجل » ازمانات ضمير عنيفة ، وكان يأس ان فلسفته لم تحل مشكلة الفرد الانسان ، لذلك بذل في جميع مؤلفاته جهوداً حثيثة لايحاد قواعد ومناهج انسانية لتربية الفرد كمواطن في ظل الدولة القومية ، وتربية الانسان كإنسان ، ولكن من المؤسف ان جميع جهود هيجل في هذا المضمار قد لاقت فشلاً ذريعاً ، ولذلك جاء كل ما خطه وكتبه عن هذا الامر غامضاً مبهماً لأن الدولة ، هذا الكيان « المقدس » حسب ايمان هيجل ، والدولة القيصريّة الالمانية بالذات ، كانت تسد أمامه طريق الحق والحقيقة .

وهذا الايمان العميق بالدولة ككيان مقدس انحرف في النهاية بهيجل عن جوهر فلسفته بالذات ، وضرب عرض الحائط بقانون اذابة المتناقضات في المركب (Synthese) ونفيها نفياً كلياً ، اذ أنه سمى في نشاطاته الفلسفية لا لينفي المتناقضات بل ليعقد صلحاً بينها ، والصلح كما يعلم القاريء بين المتناقضات امر مستحيل التحقق . لقد دعا الى المؤالفة بين الروح التي تفكر وبين « السالب » « الشر » على حد تعبيره ، واعتبر الشر لحظة تابعة للموجب ، وغرق في خضم « فكرته » Idea ، وجعل هذه « الفكرة » في جوهرها خيرة ، فأغرق في التفاؤل والايمان بأن جوهر الخير في « الفكرة » لا بد ان ينتصر ، وأن العقل لا بد ان يطرح السالب « الشر » ليحل الغاية الايجابية محله . وبذلك غلذى هيجل روح الاتكالية في الجماهير وجعلها تستسلم الى مصيرها منتظرة من الشر أن « يتعقل » حسب تعبير هيجل ، ومنتظرة من العقل ان يسود فينفي المتناقضات في المجتمع ، غير عالم ان سيادة العقل وتحقيق الحق والعدل في المجتمع هو النتائج

الآلي والوحيد لصراع المتناقضات داخل المجتمع ، وان الحركة في جميع اشكالها ومجالاتها ، لا العقل ولا «تعقل الشر» ، هي وحدها التي ستدفع المجتمع في النهاية الى تجسيد الحق والعدل في رحابه ، لذلك كله فانني شخصياً اعتبر «هيجل» حسب اجتهادي مفترق الطرق للديالكتيك ، اذ ان من هيجل تبدأ حركة الديالكتيك الجديدة ، الحركة الماركسية ، التي لا تسير متوازية والديالكتيك الهيجلي ، وانما تسير في اتجاه معاكس له تماماً ، اتجاه لن يمكنها ابدأ ، بعد انطلاقها من قوانين الديالكتيك الهيجلية الثلاثة ، من الالتقاء بها من جديد او الاتفاق معها ، او حتى مهادنتها ، وبهذا يقول كارل ماركس في كتابه «رأس المال» الجزء الاول ما يلي :

« ان طريقي الديالكتيكية لا تختلف عن الطريقة الهيجلية من حيث الاساس فحسب ، بل انما هي ضدها تماماً » .

ويقول ستالين في كتابه المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (ترجمة خالد بكداش) الصفحة - ١٣ - :

« عندما يعرف ماركس وانكلز طريقتها الديالكتيكية يرجعان عادة الى هيجل ، باعتباره الفيلسوف الذي ابان الخطوط الاساسية للديالكتيك ، غير ان ذلك لا يعني ان ديالكتيك ماركس هو عين ديالكتيك «هيجل» لان ماركس وانكلز لم يقتبساً من ديالكتيك «هيجل» سوى «نواته العقلية» وطرحا قشرته المثالية ثم وسعاه وانميّه واعطياه طابعاً علمياً حديثاً » .

ز _ الماركسية :

ليست الماركسية نظرية جديدة في علم الاقتصاد السيامي فحسب ، بل انها مفهوم عام للعالم ونظرة فلسفية شاملة الى الكون . فكارل ماركس ليس

بفيلسوف مجده فحسب ، بل انما هو فيلسوف ثوروي بكل ما لكلمة الثوروية من معنى ومفهوم ، اذ إن في ماركس يبدأ مفهوم جديد للفلسفة ، مفهوم يتناقض والمفهوم المثالي ، هذا المفهوم الذي منه تنبع جميع الاديان من يهودية ومسيحية واسلامية وغيرها من المذاهب الميتافيزيقية . ان فلسفة ماركس تهتم في جوهرها بجميع القضايا التي تمس من قريب او بعيد مشكلة الانسان ، انها تعالج قضية نشأته في الكون ، والمكان الذي يشغله ، ومهمته على هذه الارض ، ومصيره التاريخي ، وحرية وطريقته لممارسة هذه الحرية ، وموقفه من قضية الله كفكرة وجوهر ، وهي ، أي الماركسية ، تعنى بجميع ما تفرع ويتفرع من الفلسفات من مذاهب ، وذلك منذ القدم حتى اليوم .

وانا لا اقول هنا ان ماركس هو الذي خلق الماركسية ، بل ان الماركسية هي ككل علم او مذهب نتاج لجهود جماعية منذ هرقليط حتى ماركس ، غير ان فضل ماركس يبرز في تنسيق هذه الجهود في نظرية جديدة لها قوانينها الخاصة . وهذا لا يعني ابدأ انتقاصاً من قدر ماركس إذ ان ماركس قد اضاف الى تلك الجهود الجماعية جهوداً لولاها لما استقامت للماركسية ، كنظرية ومفهوم للكون ، قواعد وأسس .

وقبل ان اتابع حديثي عن الماركسية يحتم علي الواجب ان أشير الى الجهود القيمة التي بذلها رفيق ماركس وصديقه فريدريك إنكلز ، هذه الجهود التي أدت إلى تبلور الماركسية على أسس علمية تعتمد العلوم الطبيعية دليلاً وبرهاناً ، وقد جاءت جهود إنكلز بارزة في كتابه المشهور « دياكتيك الطبيعة » ، هذا الكتاب الذي اعتبره معادلاً في أهميته لمؤلف ماركس المشهور « رأس المال » .

فلقد كانت هناك حتى ظهور الماركسية نظرة واحدة ومفهوم واحد للكون ، وكانت تلك النظرية وهذا المفهوم تعتمدان « الله » خالقاً ومحرراً اول للكون ، وترى ان الله قد خلق جميع ما في هذا الكون من شمس وكواكب واقمار وحيوان ونبات وجهاد ، وان « الله » هو الذي يدير ويوجه الاشياء كلها في جميع عناصرها . وعن هذه النظرية نشأت « الميتافيزيقيا » ، ونشأت جميع المفاهيم

التي تعيش بنأى عن العقل والمنطق وبالتالي عن الادراك الانساني. وكان اول من
سدّد إلى «المتافيزيقيا» طعنة نجلاء الفيلسوف الالماني «عمانوئيل كانت»، اذ جاءت
نظرية «كانت» الكونية، ومن ثم نظرية «لابلاس» في تفسير تكوين الاجرام
السماوية من دوران «الكتل السديمية» بمثابة الثورة على النظرية القديمة القائلة
بان النجوم وسمواتها هي صورة منذ الآلاف او الملايين من السنين عن الابدية
اللامتحركة. ومن ثم جاء «داروين» الانكليزي ليقول بأن الحياة نشأت
وتطورت من «الخلية الحية» الاولى «البروتست» حتى الانسان، واخيراً جاء
ماركس ليوجه الضربة القاضية الى «المتافيزيقيا» التي تعتمد «الله» لها مفهوماً
وجوهراً، وليطلع على العالم بالفلسفة الماركسية التي يتفرع عنها الآن ما يعرف
بالمادية الديالكتيكية والمادية التاريخية.

ح- المادية الديالكتيكية:

قلنا ان المادية الديالكتيكية تتعارض و«المتافيزيقيا» تعارضاً تاماً وتختلف
وايها اختلافاً جوهرياً، وقد أبان ستالين في كتابه المعروف «المادية الديالكتيكية
والمادية التاريخية» أوجه التعارض بين الماركسية والمتافيزيقيا اذ قال في الصفحة
١٦ من كتابه المذكور - ترجمة خالد بكداش - ما يلي :

« تتميز الطرق الديالكتيكية الماركسية بالخطوط الاساسية التالية .

« أ - إن الديالكتيك خلافاً للميتافيزيقية ، لا يعتبر الطبيعة تراكماً عرضياً
للأشياء ، او حوادث بعضها منفصل عن بعض او احدها منمزل عن الآخر ، بل
يعتبر الطبيعة كلها واحداً متأسكاً ، ترتبط فيه الاشياء والحوادث فيما بينها
ارتباطاً عضوياً ويتعلق احدها بالآخر ، ويكون بعضها شرطاً لبعض بصورة
متقابلة . »

ب - « ان الديالكتيك خلافاً للميتافيزيقية ، لا يعتبر الطبيعة حالة سكون وجمود ، حالة ركود واستقرار ، بل يعتبرها حالة حركة وتغير دائمين ، حالة تجدد وتطور لا ينقطعان ، ففيها دائماً شيء يولد ويتطور وشيء ينحل ويضمحل . »

ج - « ان الديالكتيك ، خلافاً للميتافيزيقية ، يعتبر لها حركة التطور حركة نمو بسيطة لا تؤدي التغيرات الكمية فيها الى تغيرات كيفية ، بل يعتبرها تطوراً ينتقل من تغيرات كمية ضئيلة وخفية ، الى تغيرات ظاهرة واساسية ، أي الى تغيرات كيفية . »

وما ورد يتضح ان المادية الديالكتيكية هي المفهوم الماركسي في الفلسفة ، وهي كما يرى القاري ، تعتمد المادة جوهرها ونقطة لانطلاقها وترى ان التناقض الذي يكتنف المادة هو أساس كل حياة ووسيلة كل نمو وتطور ، وان وحدة المتناقضات في المادة (قانون وحدة المتناقضات) . هي التي تؤدي الى التبدل الكيفي ، وهي التي تخلق الحركة وتجعل جميع الاشياء متحركة ابدأ ، والحركة كما ترى المادية الديالكتيكية ليست مجرد انتقال آلي ، بل انها التبدل الكيفي المستمر ، كما وان الجمود ، او السكون ، ليسا سوى مظهرين ، وهما حالتان خاصتان من حالات الحركة ، والحركة لا يمكن ان تخلق خلقاً ، كما ولا يمكن ان تباد ، لان التركيب المادي للمادة ، هذا التركيب القائم على التناقض يجعل المادة في حركة دائمة ، وكل ما يمكن ان يعمل بالنسبة للحركة فهو توجيهها لا خلقها أو إبادةا كما قلت آنفاً ، والحركة هي شكل من اشكال الوجود للمادة ومظهر من مظاهرها .

وبهذا يقول إنكلز في كتابه « ديالكتيك الطبيعة » ، ما يلي :

« إنما تتحرك المادة في مدار خالده ، ولا ريب انها دورة لا تكتمل إلا في مدد . ليست سنتنا الارضية وحدة قياس كافية لها ، دورة فيها ساعة النمو الاعلى ، ساعة العضوية ، وكذلك الساعة التي تحيا فيها كائنات تعمي ذاتها وتعمي الطبيعة ، هذه الساعة تقاس بمثل الدقة الصارمة التي يقاس بها المكان الذي توجد فيه الحياة ووعي الذات ، وهي دورة كل نمط متناه من انماط وجود المادة سواء

أكان شمسياً أو سديمياً ، حيواناً مفرداً أم جنساً من الحيوان ، هي كلها معاً عابرة عارضة ، وحيث ليس ثمة شيء خالد إلا المادة التي هي في تغير خالد في حركة خالدة ، وذلك وفقاً للقوانين التي تحكم حركتها وتغيرها .

ثم يستطرد انكلز في القول في الكتاب ذاته :

«ولكن أياً كان التواتر والكثرة ، وإية كانت الدقة الصارمة المطلقة الصرامة التي تتم بها هذه الدورة في الزمان والمكان ، ومهما كان عدد ملايين الشمس والارضين التي تولد وتفتنى ، ومهما بلغ الزمن اللازم لكي تستقر وتتوطد الحياة العضوية في نظام شمسي ما ، ولو انحصر الامر في سطح كوكب واحد ، ومهما كانت لا تحصى الكائنات العضوية التي كان عليها في البدء الظهور والفاء قبل ان يخرج من داخلها حيوانات ذات دماغ قادرة على التفكير ، وقبل ان تجدد هذه في مدة قصيرة من الزمن الشروط الخاصة بحياتها ، ثم تباد بعدئذ ، هي ايضاً دون رحمة ، ازاء كل هذا نحن موقنون كل اليقين بأن المادة في كل تحولاتها تبقى هي اياها بقاءً خالدأ ، وان ليس ثمة اية صفة من صفاتها يمكن ان تفقد ، وانها بالتالي اذا كان عليها يوماً في الارض ، بضرورة حتمية لا مرد لها ، ان تبديد وتسحق ازدهارها الاعلى المنجلي في الدماغ المفكر ، فيجب بالضرورة والحتمية ذاتها ان تعيد انتاج الدماغ المفكر في أي مكان آخر وفي اي زمان .»

بما ورد بتضح مدى اثر نظرية « كانت ولا بيلاس » الكونية ، ومن ثم نظرية « داروين » البيولوجية في المادية الديالكتيكية ، فالشيء الخالد الوحيد في الكون هو المادة في اصغر جزئياتها ، والتناقض في عناصرها هو كما ترى الديالكتيكية وسيلة كل نمو وتطور ، فلا مكان اذن هناك لحالتي او محرك اول ، فالحركة تنبع من المادة ، وللمادة كما ترى الماركسية ، فهن حي متحفز ، وبذلك يقول انكلز : « إنما اولى خصائص المادة اهمها هي الحركة لا من ناحية كونها حركة آلية ورياضية فحسب ، بل من حيث هي ذهن حي متحفز ، او من حيث ما يسودها من قلق على حد تعبير « يعقوب بوم »

والمادة وفق المفهوم الماركسي ليست كتة فحسب ، بل هي طاقة ايضاً ، والطاقة

هي الحركة ، ولا يمكن ابدأ ان تفصل المادية الديالكتيكية بين الكتلة والطاقة، إذ انها ترى انه لا انفصام بين الكتلة والطاقة، وذلك بسبب ما يكتنف المادة من تناقض ، كما يقول الماركسيون ايضاً ان كل عنصر هو كتلة وطاقة، ويستشهدون على ذلك بأن العالم الرياضي «لابيديف» (Lebedev) قد اثبت علمياً ان للضوء كتلة ايضاً ، وانه لا توجد هناك ما تعرف بالطاقة المجردة (Pure Energy) كما وان العلوم النووية الحديثة قد اظهرت الارتباط الذي لا تنفصم له عرى ، بين الكتلة والطاقة ، ويستطردون في استشهادهم الى القول بان التفاعل النووي هو في الاساس والجوهر عملية تحول كيميائي، إذ بتحول جزء من المادة ذو كتلة وطاقة معينة الى ضوء وحرارة لها كتلة وطاقة تساوي كمية الطاقة التي كانت مخزنة في الكتلة قبل التحول .

واخيراً يستشهدون بقول اينشتاين القائل بان الكتلة هي حالة مؤقتة للطاقة، وان الطاقة هي حالة مؤقتة للكتلة ، وان الطاقة والكتلة غير قابلتين للانفصام او الفناء .

أضف الى ذلك ان الماركسيين على حد تعبير انكلز لا يمكن ان يتصوروا المادة دون حركة (طاقة) ، كما وانه لا يمكن ايضاً تصور الحركة (الطاقة) دون مادة، وهم يرون في الكتلة قياساً للسكون (القصور الذاتي) (Inertia) وفي الطاقة قياساً للحركة .

ويرى الماركسيون ان الكون في مجموعه وحدة كاملة، وانه لا يوجد هناك اي عنصر يمكن الا يتأثر بالعناصر الاخرى الموجودة في الكون، وبهذا يقول انكلز في رسالة له الى ماركس مؤرخة في ٣٠ ايار « مايو » ١٨٧٣ ما يلي:

« إن حركة جسم منعزل ليست موجودة ... وليس ثمة ما يقال في جسم خارج نطاق الحركة ، عديم كل صلة بالاجسام الاخرى » .

ويذهب الماركسيون الى تطبيق قانون التناقض على حركة الكواكب السيارة فيقولون بان حركة الكواكب السيارة ليست ممكنة الا بصراع الاضداد ويرهنون على ذلك بانه لو لم يكن ثمة جذب لاندفع الكوكب السيار في خط

مستقيم وفقاً للمماس ، كما ولو لم يكن هناك ثمة عطالة لاندفع الكوكب السيار في الاتجاه المعاكس ولسقط عمودياً في الشمس . ويقولون أيضاً ان صراع الاضداد يتخذ حتى من الذرة ميداناً له . ففي الذرة كما برهن الفيزيائيون طاقات جاذبة واخرى طاردة ، ومن ثم يقرر الماركسيون بان المادة خالدة في الزمان وهي غير محدودة بزمان ، كما وانها منبع كل حركة ومنبع التبدل والتغير ، والجوهر في الانتقال من الكمية الى الكيفية . وهي بالتالي لم تخلق ولا يمكن ان تفتنى او تباد ، وان جميع التحولات التي تحدث في الكون اللامتناهي ، هي بمثابة تحول لامتناهٍ لمختلف انواع المادة التي هي حركة دائمة .

أضف الى ذلك ان المادية الديالكتيكية على طرفي نقيض والفلسفة الهيولوزية (Hylozoism) ، هذه الفلسفة التي تقول بأن لكل نوع من انواع المادة خصائص الحياة والحساسية والفكر ، إذ تقول المادية الديالكتيكية ان الحياة والحساسية والفكر لا تظهر في المادة الا في مراحل تطور راقية جداً من «عضو» (Organism) المادة . كما وان المادية الديالكتيكية على خلاف جوهرى و «الآلية» ، إذ ان «الآلية» تعتبر جميع التبدلات الكيفية مجرد انتقالات في المكان ، بينما ترى المادية الديالكتيكية ان «الآلية» ليست سوى شكل للصيرورة الكونية .

ونعارض المادية الديالكتيكية النظرية الهيغلية القائلة بان الفكر « او الفكرة » (Idea) هي شيء منفصل عن العالم ، وان الفكر متقدم على الطبيعة ، اذ ترى المادية الديالكتيكية انه لا يمكن ابدأ فصل الفكر عن المادة المفكرة ، كما وان تقدم الطبيعة على الفكر أمرٌ محقق ، أضف الى ذلك ان العقل ذاته ليس سوى نتاج المادة الاعلى ، وبذلك يقول فريدريك انكلز في كتابه «لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية» ما يلي :

« ان العالم المادي الذي تدركه حواسنا ، والذي ننتمي اليه نحن انفسنا ، هو الواقع الوحيد ، اما إدراكنا وفكرنا فيها ، مهما ظهرا رفيعين ساميين ، ليسا سوى نتاج مادي جسدي هو الدماغ ... إن المادة ليست من نتاج العقل ، بل

ان العقل نفسه ليس سوى نتاج المادة الاعلى .

وتقول المادية الديالكتيكية رداً على فلسفة هيغل إنه من المستحيل أن تسبق فكرة ما، عن شيء ما، عن وجود هذا الشيء، إذ ان الفكرة عن الشيء هذا تكون ابدأ لاحقة، لا سابقة . فان الواقع على حد تعبير ماركس وانكلز ليس هو الشكل الحادوثي للفكرة ، بل ان الفكرة هي انعكاس للحركة الواقعية المنقولة الى الدماغ البشري والمستقرة فيه . لذلك ترى المادية الديالكتيكية ان الكون ليس من نتاج فكر ازلي أبدي ، بل انما هو نتاج المادة المتحركة . ولهذا يعتبر ماركس ان كل شيء مقلوب رأساً على عقب في فلسفة هيغل التي تعتبر « الفكرة » سابقة لوجود الكون .

وتعارض المادية الديالكتيكية النظرة المثالية التي تقول بأنه ليس من الممكن ان نعرف العالم « والاشياء بذاتها » وتقول بأنه من الممكن لنا ان نكتشف عن طريق العمل والعلم والتجربة قوانين العالم والكون، وبذلك يقول انكلز في كتابه « لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية » ما يلي :
« إن اعظم رد حاسم لهذه النزعة الفلسفية «عدم امكان معرفة العالم والاشياء بذاتها» ولكل نزعة اخرى غيرها، هو العمل، وعلى الاخص التجربة والصناعة ، فاذا استطعنا ان نبرهن على صحة فهمنا لحادث طبيعي بخلق هذا الحادث بانفسنا، وباحداثه بمساعدة شروطه، وباستخدامه فوق كل ذلك في سبيل أغراضنا، ففي ذلك القضاء على الشيء بذاته » .

ط — اخلاقية المادية الديالكتيكية :

ترى المادية الديالكتيكية ان القيم الأخلاقية في مختلف المذاهب الأخلاقية ، انما تنبع اولاً واخيراً من الظروف الاقتصادية الناجمة عن مختلف الانظمة

الاقتصادية التي عرفها المجتمع البشري . فلكل نظام اقتصادي مذهب اخلاقي خاص به ، وهذا المذهب يرمي الى قدع الكيان السياسي والاجتماعي للنظام الاقتصادي القائم ، فعلى الباحث على حد تعبير انكلز ، إذا ما اراد ان يتعرف على التحولات والتغيرات في شتى وجوها ومنها الاخلاقية ، ألا يبحث عن اسبابها في عقول الناس او في سمعهم وراء الحق والعدل الازليين ، وانما عليه ان يبحث في اقتصاديات العصر الذي يعنيه ، وفي التغيرات التي تطرأ على اسلوب الانتاج والتبادل .

لذلك فان المادية الديالكتيكية ترى ان لكل عصر يسوده ، اسلوب معين من اساليب الانتاج ، مذهبه الاخلاقي الخاص به ، فلنظام الاقطاع مذهبه ، وللنظام الرأسمالي مذهبه هو الآخر ، وبالتالي للنظام الشيوعي مذهب أخلاقي خاص به .

وترى المادية الديالكتيكية ان الفضائل تنبع من نبع واحد هو الاشتراكية المتطورة الى شيوعية ، إذ أنه في المجتمع الاشتراكي ، فالشيوعي ، تتحقق اهم الفضائل المثلة بعدم استغلال الانسان للانسان ، وعدم استعباد طبقة اجتماعية لمختلف الطبقات الاجتماعية الأخرى ، وتوطيد حق الانسان في الحياة لا بوصفه يقدم للمجتمع خدمات نافعة بل بوصفه انساناً . وترى الماركسية ان الانسان يكتسب وجدانه وضميره اكتساباً ، وذلك اثناء تعامله والطبيعة ، اذ ان معيشة الانسان الاجتماعية هي وحدها التي تحدد على حد تعبير كارل ماركس ادراكه واحاسيسه ، وهي التي تخلق فيه الضمير والوجدان .

ولما كانت المادية الديالكتيكية تؤمن بالحركة ، وتؤمن بان المجتمع في حالة حركة دائمة وفي حالة نمو وتطور دائمين ، لذلك تؤمن ايضاً بان المفاهيم الاخلاقية هي ايضاً في حالة تطور دائم ، غير ان هذا التطور وفق قانون العبور من الكمية الى الكيفية ، هو تطور ثوري يتحقق بقفزات تاريخية ، كذلك فان المذاهب الاخلاقية تخضع لقوانين الديالكتيك الثلاثة ، فالفضائل التي تعتبر فضائل في عصر معين يسوده اسلوب انتاج معين ، تصبح النقيض في عصر يليه يسوده اسلوب مغاير لسابقه من العصور وهكذا دواليك ...

ي — المادية التاريخية :

ان المادية التاريخية هي علم متفرع من المادية الديالكتيكية وهو يختص بشرح وابطاح قوانين الديالكتيك التي تحكم وتوجه تطور المجتمعات وترسم للتاريخ خط سيره . وترى المادية التاريخية في التاريخ عنصراً ابدي الحركة وهو — اي التاريخ — قصة الانسان الملاحق لفاياته منذ فجر التاريخ حتى عصرنا هذا . كما وانها ترى بان انتصار البروليتاريا وتحقق الدولة الاشتراكية ومن ثم تجسد المجتمع الشيوعي امر محتوم يفرضه التطور والتحولات الكيفية التي تطرأ على اساليب الانتاج وعبادته .

وهنا قد يقول قائل : إذا كانت المادية التاريخية تؤمن بان التناقض هو اساسها وجوهرها ، وان هذا التناقض سيجعل تحقق سيادة البروليتاريا امراً أكيداً ، فلماذا اذن تنشأ الاحزاب الشيوعية وتمارس نشاطاتها ؟

وعلى هذا السؤال يجيب كارل ماركس في نقده « لفلسفة الحق » « لهيغل » بأن النظرية تصبح قوة مادية حالما تنفذ إلى اذهان الجماهير وقلوبها ، لذلك يرى الماركسيون ان مهمتهم تنحصر في حشد وتحشيد الجماهير وراء الاهداف الثورية بغية الاسراع في تحقيق المجتمع الشيوعي ، وذلك لأن النظرية الماركسية لا ترى في التطور تتابعاً آلياً ، او نمواً رقيقاً ، بل انما ترى في التطور قفزات ثورية تاريخية يفرضها قانون العبور من الكمية الى الكيفية . ولقد دلت تجربة استيلاء الماركسيين على السلطة في الاتحاد السوفياتي ، ان لهذه القفزات الثورية التي وان جاءت غير مطابقة لحرفية قانون العبور من الكمية الى الكيفية ، اثرها البالغ في قطع الاشواط الطويلة نحو الاشتراكية ومن ثم تجسيد المجتمع الشيوعي .

ولكن حسب مفهوم قانون العبور من الكمية الى الكيفية يتضح لنا تماماً ان الدولة والمجتمع يعبران من المجتمع ذي الدولة الرأسمالية الى المجتمع ذي الدولة الاشتراكية ، وان طريق الرأسمالية وبلوغ الرأسمالية ذروة الحلها ، هو

المرحلة المحتومة لتحقيق الانتقال والتحول الكيفيين ، وهذا ما يعني انه كان يتوجب على روسيا القيصرية التي كان يسودها نظام اقطاعي وعلى الصين التي لم تكن حالها تختلف كثيراً عن حال روسيا القيصرية ، ان تمرا في المجتمع ذي النظام الرأسمالي أولاً ، ومن ثم تقفز ان قفزة ثورية الى المجتمع ذي الدولة الاشتراكية . قد يقول القارىء : ان قانون العبور من الكمية الى الكيفية ، يجب ان يكون نافذ المفعول في بلدان بلغت الذروة في التنظيم والانتاج الرأسماليين كالولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا والمانيا وبلجيكا وغيرها من البلدان الرأسمالية ، فلماذا إذن لم تتحول المجتمعات في البلدان الآتفة الذكر الى مجتمعات ذات أنظمة اشتراكية ، وذلك طالما ان المادية الديالكتيكية التي تؤمن بالتناقض مولد الحركة والتطور ذي القفزات الثورية تقول بهذا ؟ !

ثم قد يذهب الآخرون الى القول متسائلين عن الاسباب التي تدعو الاتحاد السوفياتي للمناداة بفلسفة التعايش السلمي بين النظامين الرأسمالي « والاشتراكي » (اذا جاز لي استعمال كلمة اشتراكي وذلك لان النظام في الاتحاد السوفياتي يستهدف تحقيق الاشتراكية ولم يصبح اشتراكياً بعد) .

فهل من الممكن اذن قيام تعايش سلمي بين النظامين ، ونحن نرى المادية الديالكتيكية من فلسفية وتاريخية تقول بالاستحالة المطلقة لمثل هذا التعايش ، إذ انها ترى ان النظام الاشتراكي لا يمكن ان يقوم الا على انقراض النظام الرأسمالي ، الذي هو مرحلة سابقة ومحتومة للاشتراكية .

وهنا قد يقرر بعض القراء ان قانون العبور من الكمية الى الكيفية والذي هو حجر الزاوية في المادية الديالكتيكية هو قانون خاطيء بدليل ان الماركسية قد انتصرت في بلدين اقطاعيين هما الاتحاد السوفياتي والصين ، وفشلت في بلدان اخرى ، كان من المتوجب على النظرية الماركسية ان تنظر فيها ، وأعني بهذه البلدان ، بلداناً بلغت فيها التنظيم والانتاج الرأسماليات الذروة ؟ ان الشيوعيين يجيبون على هذه الاسئلة الخطيرة قائلين بان قانون العبور من الكمية الى الكيفية ليس بخاطيء أبداً ، بل إنما هو قانون حديدي كان ولا يزال احد

القوانين الهامة التي تنظم مسير التاريخ ومجراه .

وهم يوافقون القارئ على ان طبيعة النظام الذي كان يسود روسيا القيصرية والصين ، كانت اقطاعية في جوهرها ، وان الثورة البلشفية التي نشبت في هذين القطرين ، انما نشبت والرأسمالية لما تزل في الدور الجنيني في كل من الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية . وذلك لأن الصناعة التي هي أهم مظاهر الرأسمالية ، كانت حتى نشوب تينك الثورتين ، في مرحلة جد بدائية ، لهذا فان الاقطاعيين من كبار ملاك ونبلاء هم الذين كانوا يسيطرون على مقدرات الامور في البلدين المذكورين آنفاً ، وكان النظام الاقطاعي في الصين وروسيا القيصرية قد بلغ درجة من الانحلال ، اصبح بقاؤه معها امراً مستحيلاً . ولما لم يكن هناك آنذاك في روسيا القيصرية ، او الصين ، من طبقة برجوازية كبيرة ، او متوسطة ، وذات شأن في المجتمع ، وفي ميدانيه الاقتصادي والسياسي ، ولما كانت هناك آنذاك قوى رأسمالية متقدمة (Advanced) تحارب التصنيع في كل من الصين وروسيا القيصرية ، وتبذل كل جهد للحيلولة دون صيرورة هذين البلدين منافسين لها ، ولما كان وعي الجماهير في القرن العشرين اسرع استجابة للحركات الثورية ، لهذه الاسباب كلها انتصرت النظرية الماركسية في بلدين يسودهما نظام طابعه الاقطاع .

ولكن هل عبر هذان البلدان الى المجتمع الاشتراكي ؟ وهل ألغيت مرحلة الرأسمالية ؟ وهل طرأ اي تعديل على كيفية المجتمع ؟ ان الجواب على السؤال الاول هو ان البلدين المذكورين لم يعبرا الى المجتمع الاشتراكي بعد بل انها في الطريق اليه وذلك بسبب تسلم البروليتاريا دفة الحكم في البلدين المذكورين .

اما الجواب على السؤال الثاني فهو ان مرحلة الرأسمالية لم تبلغ لان الغاؤها يعارض قانون العبور من الكمية الى الكيفية ، كما وإن الغاؤها يجعل تحقق المجتمع الاشتراكي امراً مستحيلاً ، اما ما حدث ويحدث في الاتحاد السوفياتي الآن فانما هو تجسيد للرأسمالية بكامل معانيها ، ولكن هذه الرأسمالية ليست برأسمالية

ذات صفة فردية بل انما هي رأسمالية ذات صفة جماعية ، انها رأسمالية الدولة التي تستهدف انماء القوى الانتاجية في الاتحاد السوفياتي وخلق صناعة قوية. كلنا يعلم ان كارل ماركس يتهم الرأسماليين بالصوصية والسرقة ، ويقول بانهم يسرقون « فائض القيمة » الذي هو من حق العمال لينموا بواسطته ثرواتهم ، إذن فمن اهم مظاهر الرأسمالية هو ان « فائض القيمة » الذي هو حق مشروع للعمال يذهب الى غيرهم ، وهذا هو ما يحدث الآن تماماً في الاتحاد السوفياتي وفي الصين إلى حد ما . « ففائض القيمة » في الاتحاد السوفياتي لا يذهب الى العمال بل انما يذهب الى الدولة ، ولكن مع هذا يبقى النظام في الاتحاد السوفياتي ذا محتوى اشتراكي ، وذلك بسبب ان ما تأخذه الدولة من « فائض قيمة » الذي هو حق مشروع للعمال لا تبذره الدولة كما يبذره الرأسماليون ، بل انما تعيد توظيفه في المشروعات الانمائية بغية زيادة القوى الانتاجية في الاتحاد السوفياتي سعياً وراء تحقيق المجتمع الاشتراكي فالمجتمع الشيوعي . اننا لا شك نذكر الخلاف الذي حدث بين خروشوف ومالينكوف ، لقد كان هذا الخلاف يدور حول عما اذا كان يجب ان تعطى الافضلية في التوسع للصناعات الاستهلاكية المنتجة للسلع الاستهلاكية ذات الدورة الواحدة ، ام للصناعات الثقيلة المنتجة للسلع الرأسمالية ، لقد كان الخلاف بالأحرى يدور حول عما اذا كان قد آن للدولة أن تعيد « فائض القيمة » الى العمال ، بغية رفع المستوى المعاشي لهم ، وكان خروشوف يقول بضرورة متابعة اعطاء الافضلية للتوسع للصناعات الثقيلة ، أو بمعنى آخر بضرورة متابعة الدولة الاستيلاء على « فائض القيمة » . . . وانتصر خروشوف اخيراً بسبب ما يسود العالم من قوتر ، وبسبب ممارسة الدول العظمى لسياسة القوة . مما ورد يتضح لنا ان قانون العبور من الكمية الى الكيفية ليس بقانون خاطيء ، فالاتحاد السوفياتي الذي شيد على انقاض نظام اقطاعي قيصري لا يزال حتى الآن يمر في مرحلة النظام الرأسمالي ، غير أن هذا النظام يختلف كما قلت آنفاً عن الانظمة الرأسمالية الاخرى ، إذ انه نظام رأسمالية الدولة ذو الصفة الجماعية ، وليس بالنظام الرأسمالي الفردي ، لذلك فان عبور الاتحاد السوفياتي الى النظام الاشتراكي لن يكون عبوراً ثورياً أو قفزة ثورية بل

سيكون نهاية مرحلة أو دخولا طبيعيا ، وبتعبير آخرن ، التبدل « الكيفي »
الناتج عن التطور « الكمي » لن يحىء بسبب سيطرة البروليتاريا على مقاليد
الحكم في الاتحاد السوفياتي نتيجة لقفزة تاريخية ، بل انما سيجيء كخطوة عادية
ومباشرة في طريق المجتمع السوفياتي الى تجسيد المجتمع الشيوعي ، أما في
بريطانيا والولايات المتحدة الاميركية وغيرها من البلدان التي بلغت مرتبة رفيعة
في التنظيم والانتاج الرأسماليين ، واعني بهذه البلدان ، البلدان المستعمرة منها ،
فان الاستعمار وامتلاك المستعمرات قد أجل الى أمد تنفيذ قانون العبور من
الكمية الى الكيفية . كما وان الدولة في البلدان المذكورة أخذت تقوم بتهديب
الرأسمالية وتأديبها عن طريق ضريبة الدخل ذات النسبة المرتفعة ، وتدخل في
توجيه الاقتصاد ، غير ان هذه الاجراءات جميعا ، لن تغلح في المدى الطويل ،
وذلك بسبب التناقضات التي تكتنف كيان التنظيم الرأسمالي ، والتي تجعل في
الازمات الاقتصادية الدورية المثلة بالكساد والبطالة ، حيث لا تجد هذه
الازمات من وسيلة لانفراجها إلا في الحرب .

قلنا في مطلع بحثنا في المادية التاريخية أنها علم متفرع من المادية الديالكتيكية
يختص بشرح وايضاح قوانين الديالكتيك التي تحكم وتوجه تطور المجتمعات ،
وترسم للتاريخ خط سيره . ويفسر ماركس وانكلاز المادية التاريخية في مقدمة
« البيان الشيوعي » فيقولان :

« إن الانتاج الاقتصادي والبناء الاجتماعي الذي ينتج بالضرورة ، يؤلفان في
كل عهد تاريخي أساس التاريخ السياسي والفكري لهذا العهد ... وبالتالي ، فكل
التاريخ (منذ انحلال الملكية المشاعية الابتدائية) هو تاريخ نضال الطبقات ، نضال
بين طبقات مستثمرة ، وطبقات مستثمرة ، بين طبقات مسودة وطبقات سائدة ، في
مختلف مراحل تطورها الاجتماعي . وقد بلغ هذا النضال في الوقت الحاضر مرحلة
اصبحت فيها الطبقة المستثمرة المضطهدة (البروليتاريا) لا تستطيع ان تتحرر
من الطبقة التي تستثمرها وتضطهدها (البرجوازية) دون أن تحرر في الوقت
نفسه والى الابد المجتمع بأسره من الاستئثار ومن الاضطهاد ، ومن نضال الطبقات

«الطبقات لها ويقول ماركس في كتابه «بؤس الفلسفة» ما يلي :

« إن العلاقات الاجتماعية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقوى المنتجة ، وعندما يحصل الناس على قوى منتجة جديدة يغيرون أسلوبهم في الانتاج ، وبتغييرهم أسلوب الانتاج ، أي بتغيير وسائل كسب معاشهم ، يغيرون كل علاقاتهم الاجتماعية ، فطاحونة الهواء تدلك على ان المجتمع هو مجتمع اقطاع ، والطاحونة البخارية ، تدلك على ان المجتمع هو مجتمع رأسمالي ، وهكذا يتضح لنا بما ورد ان التاريخ هو قصة تطور الانتاج ، وان السياسة هي على حد تعبير «سان سيمون» ليست سوى علم الانتاج ، وان الاقتصاد هو العامل المتفوق على السياسة ، وهو الذي يرسم لها خط سيرها .

ولنسح الآن الى تطبيق قوانين الديالكتيك الثلاثة (وحدة المتناقضات ، العبور من الكمية الى الكيفية ، نفي النفي) على واقع التطور التاريخي .

تقول الماركسية ، ان النظام الرأسمالي قد ألغى المتناقضات في المجتمع الاقطاعي ، فاصبح بذلك النقيض Anithese لنظام الاقطاع الذي هو القضية (These) ، غير ان هذا النظام (الرأسمالي) لم يوفق في التخلص من آثاره الاجتماعية ، فاكتنفه لذلك متناقضات اخرى ، وستؤدي هذه المتناقضات بالتالي الى هدم النظام الرأسمالي وانهياره وقيام النظام الاشتراكي فالشيوعي الذي يؤلف المركب Synthese والذي سينفي القضية والنقيض معاً .

واخيراً تقول الماركسية إن دولة البروليتاريا عندما تبلغ آخر مراحل تطور الاشتراكية تدخل في الشيوعية حيث تغنى الدولة وتزول . أما ظواهر هذه المرحلة فهي :

- ١ - زوال الطبقات زوالاً تاماً ، وزوال بقاياها وعوائلها وامتداداتها .
 - ٢ - تطور هائل وغو عظيم في القوى المنتجة .
 - ٣ - تخطي تقسيم العمل الموزع بين اعمال مادية واعمال عقلية .
 - ٤ - سعادة الانسان الحر في مجتمع حر .
- وقد وصف فريدريك انكلز فناء الدولة في المجتمع الشيوعي وصفاً دقيقاً في

كتابه المعروف باسم « ضد يوجين دو هرنغ » وذلك من الصفحة ٣٦٠-٣٦٢ ،
وقد جاء في وصفه ما يلي :

« تستولي البروليتاريا على سلطة الدولة وتحول وسائل الانتاج بايدي ذي-
بدء ، الى ملكية الدولة ، ولكنها بذلك تقضي على نفسها بصفتها بروليتاريا ،
تقضي على سائر الفوارق الطبيعية ، وسائر التضادات الطبقيه ، وتقضي بالتالي على
الدولة بصفتها دولة ... ولكن للدولة إذ تصير اخيراً المشل الفعلي للمجتمع
بأسره فانها تصبح هي نفسها زائدة عديمة النفع ... إن الدولة لم تلغ انها تقضى . »

الصّهيونيّة

هل من فرق بين اليهودي والصّهيوني — المسيحية ثورة على
اليهودية — الحركة الصهيونية والاستعمار في العالم العربي

١ _ أهناك فرق بين اليهودي والصهيوني ؟

تحاول الاوساط اليهودية ان تشيع وتذيع بأن هناك خلافاً جوهرياً بين بين اليهودي والصهيوني، والحق يقال أنه لا فرق مطلقاً بين اليهودي والصهيوني ، فالصهيوني هو ذاك الذي يطبق تعاليم التوراة ، ويسير وفقاً لما جاء في التلمود ، ولنعابل الآن بين تصريحات بعض المتطرفين من الصهيونيين امثال بن غوريون والارهابي مناحيم بيغن زعيم عصابة الارجوان وغيرهما، وبين ما جاء في التوراة : قال بن غوريون في تصريح له في القدس :

« إن خريطة فلسطين الحالية هي خريطة الانتداب ، غير أن للشعب اليهودي خريطة اخرى يجب على شبابنا ورجالنا ان يحققوها ، وهي ما نصت عليه التوراة ما بين دجلة والفرات » .

وقال « إريه ألتان » في خطاب له القاء في البرلمان اليهودي بتاريخ ١٧ آذار ١٩٥٢ ما يلي :

« من واجبنا ان نفهم العالم بصدق ان غاية اسرائيل في حشدها اليهود من كل قطر وجمعهم فيها بسرعة وكثافة ، هي ان تخلق لنا حدوداً ما بين العراق والسويس » .

وذكر « بفتويتش » الزعيم الصهيوني في كتابه « فلسطين واليهود » ما يلي :
« لا حاجة ان تكون فلسطين المستقبل محدودة بمحدودها التاريخية ، ففي امكان المدنية اليهودية الامتداد الى جميع البلاد التي وعدها الشعب المختار في التوراة

وهي من البحر المتوسط حتى الفرات ومن لبنان حتى النيل .
والقى الارهابي المعروف مناحيم بيغن في شهر كانون الاول عام ١٩٤٩ خطاباً في نيويورك جاء فيه :

« يجب ان نذكر كلنا ان القتال لم ينتهِ بعد، وانا سنواصل الحرب باساليب جديدة، واسلحة جديدة حتى يتم تحرير اسرائيل بكاملها، وتسقط البلاد العربية الباقية في ايدينا ، ويعود جميع افراد شعبنا الى الوطن الموعود ، وما على العرب « المتوحشين » الا ان يرجعوا الى الصحراء التي جاءوا منها، فهم لا يستحقون الحياة في غيرها » .

واخيراً كما لا شك ان يعرف القارئ الكريم ان العبارة التالية قد حُفرت فوق باب البرلمان اليهودي : « حدودك يا اسرائيل من الفرات إلى النيل ، والان لنز ما تقوله التوراة :

جاء في الاصحاح الخامس عشر من سفر التكوين وفي العدد ١٨ - ٢١ ما يلي :
« وفي ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقاً قائلاً : لنسلك اعطي هذه الارض من نهر مصر الى النهر الكبير (نهر الفرات) .

وجاء في الاصحاح الاول من سفر يشوع عدد ١ ، ٣ ، ٤ ، ٧ ما يلي :
« ان الرب كلم يشوع بن نون خادماً موسى قائلاً : « كل موضع تدوسه بطون اقدامكم لكم اعطيته ، كما كلمت موسى ، من البرية ولبنان هذا الى النهر الكبير نهر الفرات جميع ارض الحثيين ، والى البحر الكبير نحو مغرب الشمس تكون تخومكم » .
من الامثلة الواردة اعلاه يتضح ان الصهيوني هو اليهودي الذي يطبق تعاليم دينه ، وانه لمن المفالطة ان نفرق بين اليهودي والصهيوني فيما يتعلق بالاهداف التوسعية الحالية لاسرائيل ، طالما ان التوراة ذاتها تنص او بالاحرى تطالب بقيام اليهود بمثل هذا التوسع .

والآن قد يتساءل القارئ ويقول إن الصهيوني كما تبين لنا في فلسطين نذل غادر محجي الطبع بربري عندما يكون قوياً لا يرحم طفلاً ولا يبقي على كهل او امرأة؛ ومذمجة دير ياسين وقبية وغيرهما لتشهد بالجرائم البربرية التي اقترفها

الصهيونيون ، فهل اليهودي هو ايضاً كذلك ؟
وانا اترك للتوراة ان تجيب على هذا السؤال .

فلقد ورد في سفر الثنية وفي الاصحاح العشرين والعدد ١٠ - ٣٣ ما يلي :
« حين تقارب من مدينة لكي تحاربها استدعها الى الصلح ، فان اجابتك الى
الى الصلح وفتحت لك فكل الشعوب الموجودة فيها يكون لك للتسخير
ويستعبد لك ، وان لم تسالمك وعملت معك حرباً فحاصرها واذا دفعها الرب
إليك الى يدك ، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والاطفال
والبهائم وكل ما في المدينة ، كل غنيمتها ، فتغنمها لنفسك ، وتأكل غنيمه اعدائك
التي اعطاك الرب الهك ... هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي
من مدن هؤلاء الامم ههنا واما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب
ليست إلهك نصيبك فلا تستبق منها نسمة واحدة .

وعندما نشهد جموع اخواننا اللاجئين العرب والعائدين قريباً الى بلادهم
لنذكر ما ورد في سفر « الثنية » وفي الاصحاح الثالث والثلاثين والعدد
٥٥ - ٥٦ .

« ان لم تطردوا سكان الارض من امامكم الذين تسبقون منهم
اشواكاً في اعينكم ، ومناخس في جوانبكم ويضايقونكم على الارض التي انتم
ساكنون فيها .

وجاء في التلمود ما يلي :

« اقتل الصالح من غير الاسرائيليين ، اذا وقع احد الوثنيين في حفرة يلزمك
ان تسدها بحجر ! »

ويقول التلمود ايضاً :

« من العدل ان يقتل اليهودي كل كافر ، لأن من يسفك دم الكافر يقرب
قرباناً » فهل نستطيع بعد الامثلة التي اوردها وهي غيض من فيض ان نفرق
بين اليهودي والصهيوني ، والحق ان الانسان لا يستطيع ان يصدق عينيه وهو
يقرأ مذهولاً امثال هذه الفقرات التي تحض على العدوان واقتراف الآثام والجرائم

ضد الانسانية ، ومن ثم يعتبر اليهودية ديناً او بالاحرى احد الاديان الثلاثة الكبرى ، فاليهودية كما ارى هي دستور ومنهاج للاستعباد والعدوان ، واليهودي كما ثبت تاريخياً وخاصة في فلسطين انه غير قادر على اعطاء الحرية للآخرين . وعاجز عن تلقيها والاستجابة الى روحها السمعة الانسانية ، وذلك بسبب أن دينه يحضه على كراهية كل انسان غير يهودي ، واحتقار كل أمة غير الامة اليهودية . لهذا يتوجب علينا - ونحن نمر في مرحلة تاريخية خطيرة من مراحل تبلورنا القومي ، وتجاوبه في الوقت نفسه خطر شعب مفتصب يحرضه دينه ، نعم دينه على العدوان - ألا نفرق بين اليهودي والصهيوني ، إذ أن الصهيوني هو يهودي « متدين » يطبق تعاليم وشرائع اغرب دين عرفه الضمير الانساني .

ب - لماذا اضطهد ويضطهد وسيضطهد اليهود ؟

لم يعرف شعب من الشعوب او امة من الامم الاضطهادات قدر ما عرفتها الشعب اليهودي . فتاريخ اليهود هو تاريخ ثورة الانسانية على اليهودية ، فعندما تعتبر امة من الأمم أنها هي شعب الله المختار ، وعندما يقرر « التلمود » قائلاً : « لليهود أحب الى الله من الملائكة ، وهم من عنصر الله كالولد من عنصر ابيه فمن يصفع اليهودي كمن يصفع الله » .

أو عندما يقول « تلمود اورشليم » في الصفحة ٩٤ منه : « ان النطفة المخلوقة منها باقي الشعوب الخارجة عن الدين اليهودي هي نطفة حصان » .

أو عندما يقول « التلمود » : « لو لم يخلق الله اليهود لانعدمت البركة من الارض ، ولما خلقت الامطار والشمس ، ولما امكن باقي المخلوقات ان تعيش ، والفرق بين درجة الانسان والحيوان

هو بقدر الفرق بين اليهودي وباقي الاممين » .

او عندما يقول الراي (المعلم) موسى بن نعمان والحاخام « ريشا » في تفسير العبارة الواردة في سفر الخروج والقائلة :
« ان الاعياد المقدسة لم تجعل للاجانب والكلاب » اقول عندما يقول هذان القطبان الدينيان في تفسيرها :

« إن الكلب افضل من الاجنبي لأنه مصرح لليهودي في الاعياد ان يطعم الكلب ، وليس له ان يطعم الاجنبي او يعطيه لحماً بل يعطيه للكلب » .
أو عندما يقول الراي « مناحم » :

« ايها اليهود انكم من بني البشر لان ارواحكم مصدرها روح الله ، واما باقي الأمم فليست كذلك لان ارواحهم مصدرها الروح النجسة » .
او عندما يقول الحاخام « أريئيل » :

« ان الخارجين عن دين اليهود خنازير نجسة ، واذا كان الاجنبي قد خلق على هيئة انسان ، فما ذلك إلا ليكون لائفاً لخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا لاجلهم » .
او عندما تقول التوراة ، وهي بمثابة الانجيل عند اخواننا المسيحيين والقرآن عندنا معشر المسلمين ، في الاصحاح السابع من سفر التثنية عدد ٢١ - ٢٤ :

« لا ترهب وجوههم لان الرب الهك في وسطك اله عظيم ومخوف ، ولكن الرب الهك يعطد الشعوب من امامك قليلاً قليلاً لا تستطيع ان تفنيهم سريعاً لئلا تكثر عليك وحوش البرية ، ويدفع الرب الهك امامك ، ويوقع بهم اضطراباً عظيماً حتى يفنوا ويدفع ملوكهم الى يدك فتمحو اسمهم من تحت السماء » .

عندما يطلع الانسان على كل هذه الامور المفزعنة الرهيبة الواردة في صلب الدين اليهودي لا يسأل عندئذٍ لماذا اضطهد ويضطهد اليهود ؟ انما يسأل عاجباً مذهولاً لماذا لا يزال حتى اليوم على ظهر هذا الكوكب يهودي ويهودية ؟ اإذ ان الديانة اليهودية تتنافى وابسط المبادئ الانسانية وقواعدها . وقد خلقت الديانة اليهودية سيكولوجية خاصة بالفرد اليهودي ، وهذه السيكولوجية تجعله ابداً فرداً

انغزالياً متعالياً على بقية الامة والشعوب ، وهو ان احتك او اختلط بغيره من الافراد غير اليهود فانما يقوم بمثل هذا الامر بقية استثار واستغلال ذاك الفرد الذي خلقه الله على حد تعبير الحاخام « آريل » على شكل انسان كي يكون لائقاً لخدمة اليهودي . ففي اليهودية عنصر يناهض الاجتماع والمجتمع الانساني ، وهذا العنصر هو الذي دفع سابقاً ويدفع حاضراً باليهود الى محاولة هدم كل مذهب اجتماعي او دين او نظام . فاليهود كانوا اول من نظم الحملات لهدم الدين الاسلامي . ويقول الاستاذ محمد عبدالله عنان في كتابه « تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة » وفي الصفحة ٧١ منه ما يلي :

« ويرى بعض المفكرين المسلمين هذا الرأي فيما يتعلق بدعوات الهدم الاسلامية ، ولا سيما دعوة عبدالله بن ميمون التي اسفرت كما رأينا عن اعظم حركات هدامة عرفها الاسلام ، فيقولون ان اليهود هم الذين نظموا مقاومة الاسلام منذ ظهوره ، وحشدوا الدعاة لافساد تعاليمه ، وان ميمون بن ديسان وولده عبدالله كانا يعملان على بث مبادئ السرية في الاحياء والهدم بتحريض وتعضيد من الدعاة اليهود . »

كما وان اليهود هم الذين كانوا وراء الجمعيات التي استهدفت هدم الدعوة المسيحية كجمعية الصليب الوردي ، وجمعية عبادة الشيطان والسحر الاسود ، وجمعية الالبين (Albigeness) ، وخطه هذه الجماعة تستهدف بث دعوة فحواها محاربة مبادئ الاخلاق والسلطة بالانضواء تحت لواء الشيطان ، والشيطان في تعاليم هؤلاء هو خصم الله الذي يسيطر على جميع النظم الاجتماعية التي ترهقهم وتعصف بحرياتهم ، وكان من شعائر هؤلاء ان يعقدوا اجتماعات يفرقون فيها بالفجور والخلاعة ، ويشتمون المسيح ويبصقون على صليبه . كما وأنه كان لليهود الباع الطولى في السحر والشعوذة وقضايا السموم التي سادت اوروبا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ويقول فولتير في ذلك :

« كان اليهود هم الذين يلتجأ اليهم عادة في تأدية الشؤون السحرية ، وهذا الوهم القديم يرجع الى اسرار «الكابالا» التي يزعم اليهود انهم وحدهم يملكون اسرارها ،

وكانت كاترين دي مديتشى والمارشال دانكر وكثيرون غيرهما يستخدمون اليهود من اجل هذا الامتياز .

وقد لعبت الجمعية اليهودية المعروفة باسم « الكابالا » دوراً كبيراً في تغذية الحركات الهدامة في اوروبا، وقد اسس هذه الجمعية اليهودي المعروف باسم « اسحاق ابن سامون لورا » وكانت هذه الجمعية تتعامل بالسحر والطلاسم وتضفي عليها نوعاً من الشعوذة الصوفية، وكانت تنتظم بجمهرة غفيرة من علماء التلمود، كما وان « تيوفراستوس فون هوهنهايم » المعروف باسم « بارسيلسوس » الذي يعتبر الاب الروحي لجمعية « الصليب الوردي » قد استقى تعاليمه من جمعية « الكابالا » وكان برسيليوس هذا يذكر مجهوداته على تركيب « الاكسير » الذي كان امنية العصر آنذاك . وقد وصف فولتير في قصته المشهورة « هنرياد » شعائر الجمعيات السرية التي تفرعت عن جمعية « الكابالا » اليهودية في قطع شعرية بليغة منها :

« في شبح الليل تحت قبو مظلم
يسود الكون اجتماعهم الدنس
وعلى ضوء مصباح سحري شاحب
بقيام هيكل دنس فوق قبر
وقد نظمت السيوف فوق الجدران الحالكة
تغمس اطرافها في اوعية من الدم
هي آنية منذرة لحقائهم المرعب
وراهب هذا المعبد احد اولئك اليهود
الذين يفرون من اضطهاد الارض والناس كلهم
يجرون بؤسهم العميق من جدار الى جدار
وقد ملأوا منذ بعيد كل الأمم
بطائفة عتيقة من الاساطير والخرافات ... »

هذه هي بعض « مآثر » اليهود و« مفاخر اليهودية » التي اعلنت الحرب منذ نشأتها على جميع امم الارض وشعوبها ، وسارت في جميع خطواتها مدفوعة

بروح شريرة تستهدف تحطيم المجتمع الانساني وتقديم القيم الانسانية العليا، لذلك كان لازماً على الشعوب ان تسليقظ في فترات من تاريخها لتؤدب هذه الشرذمة من اللا انسانيين ، وبدلاً من ان يرعوي اليهود عن غيهم ويتغزلوا عن اخلاقهم الانفزالية المدوانية كانوا يتمسكون بمسلكهم العدائي والتخريبي ضد الشعوب والامم ، وقد اوجدت الاضطهادات المتوالية التي نزلت باليهود شعوراً « سادئياً » في قرارة نفوسهم ، شعور من يجد اللذة في الالم ، ولكن في ألم غيره من الناس . كما وأمنت فيهم فوازع النعمة والانتقام من كل من على ظهر هذا الكوكب من أمم وشعوب ، وشحذت فيهم الخبث والدهاء والتلون ، وجعلت بالتالي تعاونهم او تعايشهم مع الأمم الاخرى امراً مستحيلاً ، فاليهودي لا يستطيع ان يعيش الا مضطهداً او مضطهداً ، وسر ذلك كامن في دينه وفي تربيته الاجتماعية التي نظمها مبادئ منحرفة لا انسانية ، لذلك فانه لا خلاص للعالم طالما ان لليهود واليهودية فيه أثراً ونفوذاً .

ج — المسيحية ثورة على اليهودية

إن المسيحية تمثل في جوهرها نقطة الضمير في الفرد الانسان وثورته على المادية اليهودية في عدوانها وانعزاليتها . فالمسيحية ، كما أرى ، لا تمثل ابدأ تطورا في اليهودية كما يقول بعض اللاهوتيين من اخواننا المسيحيين بل انها تمثل ثورة كاملة على مفاهيمها . لذلك فانه لا يوجد اي ارتباط بين العهد الجديد والعهد القديم في الكتاب المقدس . فاذا تمعنا في العهد القديم وجدنا انه خال تماما من الروح الانسانية التي نراها بارزة واضحة في الأناجيل الأربعة وفي رسائل بولس الرسول وغيره . من الرسل ، كما واننا اذا قابلنا بين النظم الاجتماعية المسيحية والنظم الاجتماعية اليهودية يتضح لنا الفارق الجوهرى بينها : فاليهودية تقوم على العدوان والعنف

واحتقار الأمم والشعوب، بينما تقوم المسيحية على التسامح والمحبة والمساواة بين الأمم . واليهودية تلتقي بالمادية الرومانية ، فتقسم الأمم الى فئتين « شعب الله المختار » الذي هو الشعب اليهودي ، والوثنيين . بينما ترى المسيحية ان الشعوب واحدة امام الله عز وجل . ولقد كان للمسيحية الفضل الاكبر في هدم الامبراطورية الرومانية المنحلة ، اذ ان دعوتها الى المساواة الاجتماعية بين الافراد وانتهاجها في بادئ امرها نهجاً شيعياً في طريقة معيشة الجماعات المسيحية ، حيث كان يعيش النبيل والعبد ، والفقر والغني معاً قد هدم الفوارق الطبقيية بين الطبقات ، هذه الفوارق التي كانت تشكل القاعدة الرئيسية للنظام الاجتماعي الروماني . أضف الى ذلك ان الديانة المسيحية ديانة مفتوحة الأبواب لجميع الأمم والشعوب ، في حين ان اليهودية ديانة مغلقة بحيث لا يمكن للمرء ان يصبح يهودياً إلا بالولادة . وقد حاولت اليهودية في بادئ أمرها ان تسيطر على المسيحية ، وتخضعها ، اذ ان بطرس الرسول كان يرى ان لا يُسمح ابداً لغير اليهودي ان يصبح مسيحياً ، وان المسيح إنما جاء رسولاً الى الشعب اليهودي فقط ، غير ان بولس الرسول الذي يعتبر الشخصية المسيحية الاولى بعد السيد المسيح عارض هذا الرأي ، وحال دون تطبيقه معتمداً في ذلك على ما ورد في انجيل يوحنا الاصحاح الثالث والعدد ١٦ - ١٨ والقاتل :

« لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به ، بل تكون له الحياة الأبدية ، لأنه لم يرسل ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم ، الذي يؤمن به لا يدين ، والذي لا يؤمن به قد دين لأنه لم يأمن ابن الله الوحيد . » فالله إذن في المسيحية هو إله للجميع بينما هو يؤمن في اليهودية إله لبني اسرائيل فقط . كما وحاول بطرس الرسول ان يفرض الحتان على جميع من يدخل في المسيحية ، غير ان بولس الرسول وقف ضد بطرس الرسول في هذا الموضوع ايضاً محاولاً بذلك ان يقطع كل صلة تربط المسيحية باليهودية . أضف الى ذلك ان اليهودية تدعو الى الكسب وجني المرباح المادية ، وتبيح سرقة الاجانب والاعراب ، وبهذا يقول الراي (المعلم) راليو :

« سلب الله اليهودي على أموال باقي الأمم ودماهم » ، ويفسر « التلمود » هذه العبارة بما يلي :

« اذا سرق اولاد نوح - اي غير اليهود - شيئاً ولو كانت قيمته طفيفه جداً يستحقون الموت لأنهم قد خالفوا الوصايا التي اعطاها الله لهم ، اما اليهود فصرح لهم ان يضرروا الأممي لأنه جاء في الوصايا لا تسرق مال القريب ! وما دام موسى لم يكتب في الوصية لا تسرق مال الأممي فان سلب ماله لا يخالف الوصايا » .

على حين ان المسيحية دعوة مثالية تتنكر للمادية وللمال تنكراً شديداً ، وترى ان الحياة على الارض هي مرحلة لإعداد وانتقال الى الحياة الثانية في السماء ، وبذلك يقول المسيح جهاراً في الانجيل متى الاصحاح الثالث عشر عدد ٤٤ - ٤٦ « ايضاً يشبه ملكوت السموات كنزاً مخفياً في حقل وجدته انسان فاخفاه ومن فرحه مضى وباع كل ما كان له واشترى ذلك الحقل ، ايضاً يشبه ملكوت السموات فاجراً يطلب لآلئ حسنة ، فلما وجد لؤلؤة واحدة كثيرة الثمن مضى وباع كل ما كان له واشتراها » .

وايضاً يقول المسيح في الانجيل ذاته ، وفي الاصحاح التاسع عشر غاطباً الشاب الذي جاء يسأله عما يفعل ليدخل ملكوت السموات فيجيبه المسيح قائلاً : (عدد ٢١) :

« إن اردت ان تكون كاملاً فاذهب وبع املاكك واعطه الفقراء فيكون لك كنز في السماء ، وتعال واتبعني ! »

وتبتدى ثورة المسيحية على اليهودية في الاصحاح الثالث والعشرين من الانجيل متى ، وذلك عندما يعنف المسيح الكتبة والفريسيين قائلاً : (عدد ١٦ ، ١٧ ، ١٨) . « ويل لكم ايها القادة العميان القائلون من حلف بالهيكل فليس بشيء ، ومن حلف بذهب الهيكل يلتزم ، ايها الجاهل العميان ايها اعظم : الذهب ام الهيكل الذي يقدس الذهب ؟ ومن حلف بالذهب فليس بشيء ولكن من حلف بالقربان الذي عليه يلتزم » .

من كلام السيد المسيح تبدو ان النفعية هي التي توجه اليهودية وتسيطر عليها ؛ فالذهب كما يرى اليهود هو الذي يقدس الهيكل ، والقربان الموجود على المذبح هو ذو القيمة الحقيقية في نظر اليهود لا المذبح .

وجاءت المسيحية لتهدم ايضاً الفوارق بين الامم والشعوب وتقول بانه ليس هناك شعوب طاهرة واخرى نجسة ، بل ان هناك بني الانسان فقط ؛ ولقد بشر المسيح بهذه العقيدة الانسانية قولاً وعملاً . فلقد كان اليهود يعتبرون السامريين الساكنين في لواء السامرة من اعمال فلسطين قوماً اجانب « انجاساً » لا تجوز مخالطتهم ، ولا يجوز ابدأ أن يأكل الانسان معهم . كما وان المرء حسب ايمان اليهودية يتدنس اذا ما شرب من آنيتهم ، غير أن المسيح خالطهم وامتدنى الكثيرون منهم الى المسيحية . فلقد ورد في الاصحاح الرابع من الانجيل يوحنا عدد ٦ - ١٠ ما يلي :

« وكانت هناك بشر يعقوب ، فاذا كان يسوع قد تعب من السفر جلس هكذا على البئر ، وكان نحو الساعة السادسة فجاءت امرأة لتستقي ماء فقال لها يسوع : اعطيني لأشرب ! لان تلاميذه كانوا قد مضوا الى المدينة « مدينة السامريين » ليتأعوا طعاماً ، فقالت له المرأة السامرية : كيف تطلب مني لتشرب ؟ وانت يهودي وانا سامرية !! « لان اليهود لا يعاملون السامريين » .

وورد في الاصحاح نفسه ومن الانجيل نفسه ومن العدد ٣٩ - ٤١ ما يلي : « فأمن به من تلك المدينة كثيرون من السامريين بسبب كلام المرأة التي كانت تشهد أنه قال لي كل ما فعلت ، فلما جاء اليه السامريون سألوه ان يمكث عندهم ، فمكث هناك يومين فأمن به اكثر جداً بسبب كلامه » .

وينص التلمود (سنهدين ٢٢ ، ٥٨) على ما يلي :
إذا ضرب امي امراييلياً فالامي يستحق الموت ، اما المسيحية فجاءت لتقول عكس ذلك تماماً إذ ورد في انجيل لوقا الاصحاح السادس عدد ٢٧ - ٢٩ ما يلي :

« لكني اقول لكم ايها السامعون أحبوا اعداءكم ، أجنسوا الى مبغضكم ا

باركوا لآغنيكم، وصلوا لآجل الذين يسيئون اليكم، من ضربك على خدك فأعرض له الآخر أيضاً، ومن آخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضاً» .

ويتضح مما ورد أعلاه ان المهاتما غاندي قد استوحى فلسفته الخاصة بالمقاومة السلبية « Passive Resistance » من الفقرة الآتفة الذكر . لذلك فان الكثيرين من رجال اللاهوت المسيحي يعتبرون المهاتما غاندي في جوهره مسيحياً صادقاً في مسيحيته .

ومن الغريب ان اليهودية التي لا تعرف في حياتها سوى الخداع والدجل والتضليل قد دفعت بأحد كبار كتاب القصة فيها المدعو « شالوم آش » الى وضع قصتين طويلتين الاولى بعنوان « الناصري » ، وتستهدف هذه القصة تبرئة الشعب اليهودي من جريمة صلب المسيح وحصرها برئيس الكهنة « حنان » وعائلته ، ثم تغالط التاريخ لتقول بان « بيلاطس البنطي » استاء من تدخل زوجته في امر السيد المسيح ، لذلك استجاب الى رغبة زمرة الشقي « برباس » فوافق على اعدامه ؟!

اما القصة الثانية فهي بعنوان « الرسول » ، وهدف الكاتب من وراء وضعها الى تبيان الصلة التي تربط المسيحية باليهودية ، واظهار الخدمات التي ادتها اليهودية للمسيحية في مراحلها الاولى ، اذ يظهر « شالوم آش » ان اليهودية وضعت جميع معابدها تحت تصرف تلاميذ المسيح ليبشروا من على منابرهما بالعقيدة المسيحية .

د - اليهودية في خدمة رأس المال

لا يعني هنا الا ان أبدأ بمحي هذا بقول اليهودي النأثر على اليهودية والنفعية والاستغلال : « كارل ماركس » ، هذا القول الوارد في الصفحة ٥٥ من كتابه المسألة اليهودية الذي نشرته مكتبة المعارف في بيروت ، وترجمه محمد عيتاني :

يقول ماركس :

« يجب أن لا نبحث عن سر اليهودي في دينه ، بل فلنبحث عن سر الدين
لحي اليهودي الواقعي . ما هو الاساس الدنيوي لليهودية ؟ المصلحة العملية
والمنفعة الشخصية . إذن فالعهد الحاضر بتحرره من المتاجرة والمال ، وبالتالي من
اليهودية الواقعية والعملية انما يحرر نفسه ايضاً .

والتنظيم الاجتماعي الذي يلغي الشروط الضرورية للمتاجرة ، وبالتالي يلغي
امكانية المتاجرة ، سوف يجعل وجود اليهودي مستحيلًا ، والضمير الديني لليهودي
سوف يتلاشى مثل بخار قافه في جو المجتمع الحقيقي . »

ويستطرد كارل ماركس فيقول في الصفحة ٥٦ من كتابه المذكور :

« ان تحرير اليهود فعلاً في معناه الاخير يكون في تحرير الانسانية من اليهودية .
لقد تحرر اليهودي فعلاً ولكن على الطريقة اليهودية ، فاليهودي مثلاً الذي لا
يُحسب له حساب في فيينا هو الذي يقرر بقوته المالية مصير المملكة كلها .
وأن اليهودي الذي قد يكون في أصغر الدول الالمانية محروماً من الحقوق هو
الذي يقرر مصير اوروبا . »

ويستمر كارل ماركس فيتساءل عن إله اليهود ويحيب على هذا السؤال في
الصفحة ٥٩ من الكتاب ذاته فيقول :

« المسال هو إله إسرائيل المطاع ، ويعتقد اليهود أنه لا ينبغي معه لاي إله
أن يعيش . إن المسال يخفض جميع آلهة البشر ويحملهم سلعاً . السفينة هذا
هو الاله الحقيقي لليهود . »

لا أعتقد ان هناك تحليلاً مشابهاً في واقعيتها وجراته لليهود كالتحليل الذي
أوردته كارل ماركس أعلاه . فعقب ان قضى الرومان على آخر انتفاضة ثورية
قام بها اليهود في فلسطين عام ١٣٢ بعد المسيح بزهامة الناصر اليهودي « بارخوشبا »
هدموا القدس واداروا المحاربت في اطلالها ومن ثم جعلوها مستعمرة رومانية
دعوها « ايليا كابيتلوا » وسبوا من تبقى من اليهود وساروا بهم يستعرضونهم
طاسرى في شوارع روما ، ثم توزع اليهود على مختلف بقاع الارض .

منذ ذاك الحين حتى قيام جمعية «عشاق صهيون» ومن ثم تأسيس «تيودور هرتس» للحركة الصهيونية نهج اليهود في مختلف بقاع الارض نهجاً واضحاً يتمثل في استخدام جميع الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية في خدمة رأس المال اليهودي وتثمينه، وتنامي اليهود تناسياً مطلقاً كل قضية تتعلق بالقومية اليهودية وبانشاء وطن قومي او تأسيس دولة يهودية، وسعوا سعياً حثيثاً لامتلاك السيطرة على اكبر قدر ممكن من رأس المال العامل في العالم . فاحتكر اليهود في القرون الوسطى «الربا» وكانوا يتناولون الفوائد الباهظة على ما يقرضونه من اموال، والرواية التمثيلية التي وضعها شكسبير والمعروفة باسم «تاجر البندقية» لخير دليل على ما كان لليهود من اثر رهيب غثيف في حقل «الربا» وما فطرت عليه نفس اليهودي من وسائل شريرة بغية الحصول على المال . واليهود كانوا هم الذين يمدون امراء الاقطاع بالمال لقاء فوائد باهظة يحاولون بذلك استخدام ما لهؤلاء من سلطة ونفوذ من اجل تثمين اموالهم وتنمية مواردهم .

وجاءت الثورة الصناعية في القرن السابع عشر، وخرجت المصارف الى الوجود وبدأت المؤسسات المصرفية تصبح عاملاً حيوياً في حقل الاقتصاد الوطني، وأخذ المال لا السلطة يتربع على عرش السلطان والنفوذ، فاتجه اليهود برؤوس اموالهم الى المصارف والمؤسسات المصرفية الكبرى، وعكفوا بذلك من جعل رأس المال اليهودي عاملاً خطير الشأن في الاقتصاد العالمي وهذا مما نشر النفوذ اليهودي في مختلف الدول وجعل لليهودية العالمية مكاناً مرموقاً في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فبرزت الى حيز الوجود بيوتات مالية يهودية ضخمة ذات نفوذ هائل جبار مدمر وأصبح اليهودي كراس المال تماماً لا قومية له او دين او وطن ، بل انما له مذهب واحد هو الاستغلال وتكديس الارباح . ولهذا لاقت اول دعوة لتأسيس دولة اسرائيل في القرن السادس عشر فشلاً ذريعاً، وقد قام بهذه الدعوة يهودي عاش في ذاك القرن ويدعى «دافيد روبيني» كما وان النداء الذي وجهه نابليون في ٢٠ نيسان عام ١٨٩٩ هذا النداء الذي طلب فيه نابليون من اليهود مساعدتهم المالية لقاء مساعدته لهم في تأسيس دولة في

فلسطين لم يلق من الاوساط اليهودية حماساً، او قبولاً بل تابع اليهود النهج السالف الذكر وابقوا رأس المال وتثميره الهدف الاول لهم في الحياة، واتخذوا من نابليون موقف الحذر غير المتهور خشية ان تتضرر مصالحهم في بريطانيا وفيما وراء البحار، وتحاشوا الدخول في اية مغامرة سياسية قد تعرض رأس المال اليهودي العالمي الى خطر مؤكد او محتمل . وسبب اتخاذ اليهود لهذا الموقف وتناسيهم للتوراة التي تحضهم على الرجوع الى فلسطين او بالاحرى الى مملكتهم المزعومة الممتدة من النيل الى الفرات، لا يعود ابدأ الى عدم رغبتهم في التنكر لما جاء في المراثي: « فلتنسي يميني ان نسيئك يا اورشليم ! » وانما يعود اولاً واخيراً الى كون اليهود قد ادركوا آنذاك بما لمسوه وعرفوه في معاملاتهم المالية انه بإمكانهم ان يسيطروا على العالم بجموع اقطاره ودوله عن طريق رؤوس اموالهم، لذلك ذهب بعض مفكري اليهود، بغية اشاعة الطمأنينة لرأس المال اليهودي وفتح مجالات جديدة امامه، اقول ذهب بعض هؤلاء المفكرين الى حد المطالبة بحذف الترانيم القائلة بمجيء المسيح المنتظر من صلواتهم وتراثيلهم، وكان على رأس هؤلاء المفكرين الفيلسوف اليهودي «موسى مندلسون» و«صموئيل هولدهايم» و«اسحاق جيجر» وقال هؤلاء ان تشلت اليهود تحت كل نجم هي ضرورة وحكمة إلهية اراد الله من ورائها ان يختلط اليهود بمختلف الشعوب ليرشدوهم الى وحدة الكائن الاعلى الذي هو إله اسرائيل. ولا شك ان القارىء ليدرك مدى التناقض الذي يكتنف هذه الاجتهادات الدينية والدين اليهودي بالذات الذي هو دين مغلوق، غير اننا ندرك ان هذه الاجتهادات الدينية لا ترمي الى ارشاد الشعوب ليؤمنوا باله اسرائيل، وانما ترمي اولاً واخيراً الى تمكين شعب اسرائيل من استغلال الشعوب والسيطرة على رؤوس الاموال العامة في العالم .

وقام ايضاً بعض الزعماء السياسيين من اليهود وفادوا بأنه لا يجوز في كل الاحوال ان يطالب اليهود او يسعوا الى تأسيس دولة يهودية، وأن على اليهود ان يختلطوا بسكان البلاد التي يعيشون فيها وان يندمجوا فيهم، وان اليهودية دين

لا قومية، وان اي شذوذ عن هذه القواعد سيجعل المسيحيين يرتابون بولاء اليهود للدولة، وهذا ما سيعرض الجاليات والطوائف اليهودية الى كوارث محققة تنزل بهم وباصوالهم .

وفي نهاية القرن التاسع عشر عندما اسست جمعية «عشاق صهيون» وأعقبها تأسيس جمعية «كاديناج» التي اوجدها صحفي يهودي يدعى «بيرنوم» و«بيرنوم» هذا كان اول من ابتكر كلمة «صهيونية»، وقف قسم كبير من اليهود معارضين دعوات هاتين الجمعيتين بتأسيس دولة يهودية في فلسطين، وكانت اشد المعارضين لهذه الدعوة المتمولون من اليهود الذين دفعوا باحد اليهود الى تأسيس جمعية تناهض هاتين الجمعيتين وتعرف بجمعية «ابناء موسى» وقد قاومت هذه الجمعية دعوة الجمعيتين المذكورتين بضراوة، ونادت بأن الصهيونية حركة فكرية روحية وليست بحركة مادية .

وحب المال رغبة غريزية جامحة في نفس اليهودي ، فلقد سبق لاسيد المسيح ان حل على اليهود في هذا الشأن حجة شعواء عنيفة، إذ ورد في الاصحاح الحادي عشر العدد ٤٢ - ٤٣ من الإنجيل لوقا ما نصه :

« ولكن ويل لكم ايها الفريسيون لانكم تعشرون النعنع والذئاب وكل بقل، وتجتاوزون عن الحق ومحبة الله . »

كما وأتينا نذكر ولا شك ما فعله السيد المسيح عندما دخل الهيكل ، هذا الهيكل الذي يعتبر الرمز القومي الديني لليهود فوجد باحاته تغص بالصيارفة وبالباعة فأقدم على طرد هؤلاء قائلا :

« مكتوب ان بيتي بيت الصلاة وانتم جعلتموه مغارة لصوص» (وهذا القول وارد في الإنجيل لوقا الاصحاح التاسع عشر العدد ٤٦) .

ويذهب حب المال باليهودي إلى حد إباحة السرقة ديناً ، نعم لإباحة السرقة والغش ديناً، ولقد ورد بذلك تحليل واضح في التلمود:

« إن الراي (المعلم) صموئيل كان رأيه أن سرقة الاجانب مباحة ، وقد اشترى هو نفسه آنية من الذهب كان يظنها الاجنبي نحاساً ، ودفع ثمنها اربعة

دراهم فقط وهو ثمن بنحس وسرق درهماً آخر من البائع .

ونحن نستطيع ان نتفهم بسهولة وبسر الاسباب التي تجعل اليهودي يرى له في المال إلهاً واحداً ووحيداً على حد تعبير كارل ماركس ، فالدين اليهودي الذي جعل من العدوان العنصر الاساسي والموجه للقومية اليهودية ، قد جعل لليهودي بالتالي فرائس للاضطهادات وقطباً جاذباً لشقى الكوارث والمصائب ، واخيراً شعباً محتقراً لدى الشعوب والأمم الأخرى . ولما كان من أهم خصائص الحياة وميزاتها انها تدفع بالفرد والشعب الى تأكيد وجوده احياناً عن طريق السلطة السياسية ، واخرى عن طريق المال ، ولما كان الشعب اليهودي قد اعلنها حرباً شعواء على الشعوب والأمم الأخرى منذ ان عرفت اليهودية واليهود لها ولهم وجوداً في التاريخ البشري ، لذلك فان اليهود كان لا بد لهم ان يمتدوا بسلسلة طويلة من الهزائم والفشل في الحرب التي اعلنوها على الانسانية جمعاء . والشعب اليهودي كما نعلم شعب نشيط يتجاوز به الطموح حدود الطمع ، لذلك اتجه اليهود بعد ان لاقوا الهزيمة تلو الهزيمة في ميدان السلطة السياسية الى ميدان المال . وركزوا كل مجهوداتهم على ان يصبحوا القوة المالية الاولى في العالم ، او بالاحرى شعب الله المختار لجمع المال وتكديسه واستغلال بقية الشعوب وسرقة الامم الأخرى ، فالدين الذي يرى في العدوان امراً مشروعاً يعتبر السرقة والاستغلال والتدليس والغش وجائب سباً وفروض الهية . لذلك كله وقف المليون اليهود في القرن السادس عشر فالسابع عشر فالثامن عشر ضد كل حركة قومية يهودية تستهدف انشاء وطن ودولة قوميين ، وترمي الى تحويل المجهودات اليهودية عن تدعيم النفوذ المالي العالمي لليهود الى مجالات السياسة ودهاليزها بغية تحقيق الوطن القومي اليهودي ، وتجسيد الدولة القومية لليهودية ، إذ كان الرأسماليون اليهود يرمون آنذاك خاصة عقب النجاحات الباهرة التي حققوها في ميدان معركة كسب المال وتشييده الى السيطرة على العالم سيطرة كاملة شاملة مطلقة ، وكانوا يعلمون انهم متى وصلوا الى هذا الهدف ، فان الوطن القومي والدولة اليهوديين سيتحققان آلياً ودونما عناء . والحق يقال

ان المالىين اليهود كانوا، كما اثبت المستقبل، على صواب في نظريتهم هذه، ولما كان الرأي المصيب هو الذي يحسد ذاته ويفرض نفسه على المستقبل فرضاً لذلك خنقت الحركات القومية اليهودية السابقة لحركة «تيودور هرتزل»، وسنرى حينها نبحث في الصهيونية مدى المساهمة التي اسهم بها المالىون اليهود في حركة هرتزل هذه . تابع اليهود منذ القرن السادس عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر حريمهم في ميدان المال، وركزوا في بادىء الامر نشاطاتهم على الاعمال المصرفية، واعمال البورص الدولية ، إذ انهم كانوا يعلمون حق العلم ان من يسيطر على المال يسيطر بالتالي على الصناعة، وأن من يتحكم بالمال يتحكم بالتالي على جميع فعاليات الاقتصاد الوطني والعالمي . فنشأت سلسلة ضخمة من البيوتات المالية اليهودية وطوقت هذه السلسلة العالم بجميع قاراته وشدته الى النفوذ اليهودي شداً محكماً ووثيقاً، فاصبح اليهودي هو الذي يقرر ويرسم اتجاهات الاقتصاد العالمي في جميع حقوله ، وغداً للمال اليهودي عنصراً فعالاً وعاملاً قوياً في توسيع مجالات الطمع البشري ، فظهر الاستثمار بوجهه البشع وانشئت المستعمرات ، ونحن اذا ما راجعنا عصور الاستعمار يتضح لنا ان الاستعمار ولد في القرن ذاته الذي ولدت فيه الانظمة المصرفية ، وان الطابع البرجوازي للاستعمار لم يتجاوز المئة سنة، اذ سرعان ما غدا السابغ الرئيسي للاستعمار طابعاً رأسمالياً بكل ما لكلمة الرأسمالية من معنى ومفهوم . كما واننا نحن معشر العرب لنذكر بألم ان حصّة من اسهم قناة السويس قد اشترتها بريطانيا بقرض يهودي، ولنذكر ايضاً ان روتشيلد كان له الاثر البالغ في دفع بريطانيا الى احتلال مصر ، وهذه حقيقة تاريخية لا يمكن انكارها .

لقد كان كارل ماركس مصيباً كل الصواب عندما نادى بتحرير العالم من اليهودية ، اذ رأى انه لا سبيل الى تحرير العالم من النظام الرأسمالي البشع الا عن طريق تحرير العالم من اليهودية . فالرأسمالية واليهودية هما القاعدتان اللتان ارتكزا ويرتكزا عليها اليوم الاستثمار الذي يعتبر أبشع مظاهر الرأسمالية وأشد أمراضها فتكاً بالكرامة الانسانية .

نمت الرأسمالية اليهودية العالمية وتضخمّت، وسيطرت البيوتات المالية اليهودية على الصناعات في العالمين للقديم والحديد ، وغدا اليهودي هو الذي يقرر سعر «الاسهم» وهو الذي يحدد اسعار المنتجات من بضائع وسلع ، وهو الذي ينشئ «المؤسسات والمشروعات ويهدمها ، فكل مشروع لا يمكن ان يخرج الى الوجود اذا لم توافق عليه البيوتات المالية اليهودية ، فتمده بالقروض والأموال ، أما اذا خرج مشروع ما دون رغبة اليهودية العالمية فالبورصة كفيلة بهدمه وتدميره او يجعله لقمة سائغة لليهودية العالمية (ولا اريد ان اتوسع في شرح هذا الموضوع ، ولا شك ان القارئ المطلع عن المبادئ الاولى لانظمة البورصة يعرف ما اعني) وهكذا غدا المال اليهودي بمثابة الاوكسجين للدم الذي يجري في شرايين النظام الرأسمالي ، وبلغ النفوذ اليهودي مبلغاً جعل « بن غوريون » رئيس اصغر دويلة ممسوخة في العالم يرد على « ترومان » رئيس الدولة الكبرى « العظمى » في انسانيتهما - الولايات المتحدة الاميركية - عندما طلب ترومان منه في ٢٩ ايار ١٩٤٩ بمذكرة قوية اللهجة ان يعيد مثني الف لاجيء عربي الى ديارهم ، اقول جعل « بن غوريون » يرد على « ترومان » الذي سيبقى اسمه ملطخاً بالعار ، قائلاً :

« ما دام الصلح لم يتم مع العرب فلن يُسمح لاعداد كبيرة من اللاجئين بالعودة ، ان الولايات المتحدة بلد قوي ، أما اسرائيل فبلد صغير وضعيف ، إننا قد نسحق ولكننا لن نفتخر » .

ويصف السفير الاميركي في اسرائيل المستر مكدونالد تراجع الولايات المتحدة التام في وجه رسالة بن غوريون فيقول في مذكراته :

« إن المذكرة الاميركية التالية إطرحت تمام الاطراح اللهجة الصارمة التي صيغت بها سالفتهما ، لقد كفت واشنطن اكثر فاكثر عن وضع القوانين لتل أيبب » .

(من كتاب هكذا يضيع الشرق الاوسط صفحة ٢٧٨ - ٢٧٩ لالفر د هيلينثال - ترجمة دار العلم للملايين .)

ولأضع أمام القارئ الكريم أثر النفوذ اليهودي في العالم الرأسمالي سأنقل
الفقرة التالية من الكتاب ذاته ، ومن الصفحة ٢٢٩ والتي يقول فيها « الفرد
ليلينتال » ما نصه :

« وحسب الشركات الأميركية ذات المصالح الاقتصادية في الشرق الأوسط ،
بالرغم من إدراكها التام ان رؤوس اموالها لا بد من ان تتأثر بموقف الولايات
المتحدة إزاء اسرائيل ، فضلت في حينها أمكنها ان تبقى بعيدة تماماً . لقد شعرت
صغرى هذه الشركات بأن على الشركات الكبرى نفسها تتصدى ، ولكن هذه
(الشركات الكبرى) كانت تخشى أن تدلي بأرائها .

ولنسمع الآن ما يقوله الدكتور رالف بانث مساعد سكرتير هيئة
الأمم المتحدة ، وقد ورد قوله هذا في الكتاب الآنف الذكر وفي الصفحة
٢٢٤ منه :

« حق الفكامة فيما يتعلق بفلسطين تثير الجدل » .
ولنسمع ما يقوله الجنرال « فان بانكه » الدانماركي وكبير المراقبين السابق
للهدنة (المورد ذاته ٢٧٢) .

« كنت ميالاً جداً الى اليهود عندما وصلت الى فلسطين ، ولكن قراء الصحف
الدانماركية لا يعطون صورة صادقة عما يجري هناك ، إن وجهات النظر اليهودية
هي السائدة » .

ولنتمع بهذه الكلمات القليلة التالية التي تشعرنا بالنفوذ الرهيب الخطير
للرأسمالية اليهودية العالمية في زعيمة العالم « الحرطبعاً » الولايات المتحدة
الأميركية .

كتبت فرجينيا جيلدرسليف وهي عميدة من عمد الجامعة الأميركية تقول :
« ان عجز الصهاينة عن الصبر على اي نقد غير ملائم يوجه اليهم او الى
اسرائيل من غير ان يصبوا على الناقد جام الطعن الشخصي وينسبوا اليه دوافع
خسيسة واحقاداً ، ان هذا المعجز سوف يعوق الدراسة العقلانية لمشكلات
الصهاينة والمشكلات الاسرائيلية . اني بوصفي اميركية صالحة انتقد في حرية ،

وعلى رؤوس الاشهاد، اعمالاً تقوم بها بلادي نفسها إذا اعتقدت انها خاطئة .
واني كذلك انتقد في بعض الاحيان اعمالاً تصدر عن بلاد اسلافي القدماء انكلترا
وفرنسا ، فلماذا لا أكون حرة في انتقاد اعمال اسرائيل بالطريقة نفسها ؟ لماذا
يجب ان تكون تلك الدولة، وذلك الشعب وحدهما من بين دول الارض وشعوبها
ذوي حرمة قدسية فليس من حق أحد ان يمسهما .

يتضح من قول هذه الاميركية المتحررة ان الرأسمالية اليهودية العالمية لا
تكتفي باستغلال وخنق حريات الشعوب في المستعمرات ، وانما تتجاوز هذا
الامر الى استغلال وخنق حريات شعوبها بالذات .

واخيرا للتدبر كلمات وايزمن اليهودي المتدين اي الصهيوني ، لنرى الى اي
مدى بلغ تأثير المالية اليهودية العالمية ونفوذها . يكتب « وايزمن » في مذكراته
يقول :

« نحن اليهود كنا نسمى لاقامة دولة لنا في فلسطين وقد انتدبنا (لاحظ هم
انتدبوا) الانكليز لحكمها ، واستعنا في هذا بعصبة الامم ، فنحن الذين سلمنا
للانكليز مؤقتاً فلسطين، وليس الانكليز هم الذين وهبوا لنا بعد ذلك .
لا شك ان القارئ الكريم يدرك مغزى كلمات وايزمن هذه ، فوايزمن يعني
انه المالية اليهودية العالمية هي التي تحكم بريطانيا ، وتوجه عصبة الأمم وليست
بريطانيا التي كانت عظمى آنذاك هي وعصبة الامم اللتان وهبتا لليهود فلسطين ،
وقد جاء لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية ليؤمن على كلام وايزمن ويقول :
« لقد تحققنا في عام ١٩١٧ أن من الضروري لنا ان نحصل على كل مساعدة
يمكننا الحصول عليها ، وقد وجدنا من الواجب علينا لهذا السبب ان نكسب
ود اليهود » .

وهاك ايها القارئ مثلاً آخر على مدى تعاون الاستعمار ، ورعيته المالية
اليهودية العالمية ، إذ يقول أحد الكتاب الانكليز ما ترجمته : « كان يرى الانكليز
ابان الحرب العالمية الاولى أن اليهود ، مما يعانونه من اوضاع سيئة في مختلف البلدان ،
وما لديهم من رؤوس اموال كبيرة هم خير من يكون آلة للاتداب البريطاني

على فلسطين ، وهذا ما جعل البريطانيين يتبنون قضيتهم ، ويتخذونهم تحكماً
لنيل الانتداب .»

هـ - الحركة الصهيونية والاستعمار في العالم العربي

قلت فيما تقدم ان الماليين اليهود خنقوا في السابق كل حركة قومية يهودية
كانت ترمي الى انشاء وطن قومي ودولة يهوديين ، وذلك كي يركزوا مجهوداتهم
على إنشاء رؤوس اموالهم ليدعموا سيطرتهم على العالم . وعندما تأكد المليون
اليهود من أن سيطرتهم على الاقتصاد العالمي أصبحت كاملة شاملة ، وان نفوذهم
السياسي نتيجة لذلك بات رهيباً مدمراً ، وانه لن توجد بعد اليوم دولة رأسمالية
يمكن ان تعصي لهم امراً ، عندئذ إنجبه المليون اليهود بكل قواهم نحو تأسيس
الوطن القومي اليهودي وتجسيد الدولة اليهودية في فلسطين . ولقد بدا في نهاية
القرن التاسع عشر ان الخلافات بين المالية اليهودية العالمية وبين الحركات القومية
اليهودية التي تجتمعت اخيراً في الحركة الصهيونية قد اخذت بالتلاشي والزوال ،
وكان من اهم اسباب الاتفاق بين الصهيونية والمالية العالمية اليهودية لإحلال
الامبراطورية العثمانية ، وتدهور الاحوال الاجتماعية والاقتصادية في بلاد
العرب إبان الحكم التركي ، وتطلع الدول الغربية الممثلة ببريطانيا وفرنسا الى
تصفية تركة الرجل المريض المحتضر ، الخلافة العثمانية والتحقق من وجود البترول
في مناطق الموصل وبقية الأقاليم العربية الاخرى ، وصيرورة مناطق الشرق
الاوسط مجالاً طيباً او بالأحرى ممتازاً لاستثمار رؤوس الاموال اليهودية العالمية ،
كل هذه الامور جعلت دعوة «تيودور هرتزل» الى تأسيس دولة يهودية في فلسطين
تلقى الأذن الصاغية من الرأسمالية اليهودية العالمية ، وتنطلق كالصاروخ الى افئدة
بيوتات المال اليهودية وتتعداها الى جماهير الشعب اليهودي ، ومن ثم الى الدول

الأوروبية التي كانت تتلف على تصفية تركية « الرجل المريض » ، وتسمى
بجاهدة لقرنه . وقد وجد الاستعمار البريطاني الفرنسي في الحركة الصهيونية
طليعة أو رأس جسر تمير عليه الى تحقيق اغراض الرأسمالية الغربية التي هي
في الاصل اغراض المالية اليهودية العالمية . فكان تشارل هنري تشرشل اول
انسان غير يهودي قام بالخطوة العملية الاولى على الطريق الى تأسيس الدولة
اليهودية ، فاستحصل من السلطان عبد الحميد على فرمان يكفل لليهود المساواة
في الحقوق المدنية وبقية سكان الامبراطورية العثمانية ، واعقبت هذه الخطوة خطوة
أخرى خطاها على هذا السبيل السير « موزنتيفوري » اذ تمكن بالتعاون
والخام الانكليزي الأكبر « فاثان آدلر » من جمع ثلاثين الف جنيه استرليني ،
كما وحصل على فرمان من السلطان السنيء المذكور عبد الحميد يخول بموجبه اليهود
حق تملك الاراضي في فلسطين ، واعقب هاتين الخطوتين العمليتين عقد اول مؤتمر
صهيوني في مدينة « بال » عام ١٨٩٧ ، وترأس هذا المؤتمر تيودور هرتزل وأسفر
اجتماع المؤتمرين عن الموافقة على المنهاج التالي للحركة الصهيونية :

- ا - تشجيع الاستعمار اليهودي في فلسطين بطريقة منظمة .
 - ب - تنظيم الحركة الصهيونية واتحاد الهيئات اليهودية المتفرقة في شتى
انحاء العالم .
 - ج - ايقاظ الوعي القومي في الفرد اليهودي .
 - د - القيام بمساعي جدية لدى مختلف الحكومات للحصول على موافقتها على
اهداف الحركة الصهيونية .
- وسارعت المالية اليهودية العالمية الى معاضدة هذا المؤتمر وتدعيم قراراته ،
فأمدته الحركة الصهيونية بمليونين من الجنيهات الاسترلينية كانت النواة لمصرف
صهيوني يرمي الى الاسهام في انشاء المستعمرات الزراعية في فلسطين وتوطين
اليهود في هذه المستعمرات .
- وقد جعل التوطن في المستعمرات وفق المنهاج التالي :
- ا - التوطن في المستعمرات الزراعية .

ب - التوطن في المستعمرات الجماعية ذات الملكية المشتركة .

ج - توطن اصحاب الملكيات الزراعية الصغيرة .

وعقب ان انتهى المؤتمر الصهيوني عاد هرتزل فخوراً إلى « فيينا » وادلى
مزهواً بالتصريح التالي :

« لو طلب اليّ تلخيص اعمال مؤتمر « بال » ، فسأني اقول لا بل انادي على
رؤوس الاشهاد ، أنني اسست الدولة اليهودية ، وقد يثير هذا القول عاصفة من
هنا وهناك ولكن العالم سيشهد بعد خمسة اعوام او بعد خمسين عاماً ، ما في ذلك
من شك ، قيام الدولة اليهودية » .

هذا ما قاله هرتزل ولقد تحققت بالفعل نبوءته إذ ان العالم شهد قيام دولة
اسرائيل عقب المدة التي حددها وهي خمسون عاماً (١٨٩٧ مؤتمر بال ١٩٤٨
قيام دولة اسرائيل) غير ان اليهود مع ما يتصفون به من ذكاء او بالاحرى
خبث ودهاء قد ضربوا عرض الحائط بإسطة الحقائق ، وهي ان الشعوب العربية
التي تشكل الأمة العربية هي امة تخضع ايضاً لقوانين الحياة ، هذه القوانين التي
تقول ان الأمة تغفو لتستيقظ ، كما وأعميت ابصارهم عن واقع البقعة العربية التي
بدت تباشيرها في الثورة العربية الكبرى ، والتي اخذت تتألق من على حبال
المشائق في القدس ودمشق وبيروت ، والتي مات شهداء السادس من ايار
ونورها يشع وضاءً وضاحاً من عيونهم ، ويتدفق كالسيل الهادر على ألسنتهم (
صارخاً :

« فلنمت ولتحي الأمة العربية » .

كل هذه الحقائق نسيها اليهود وتناستها الصهيونية ، غير عالمة ان بذرة القومية
العربية قد بدأت تنمو ، وان هذه البذرة ستصبح شجرة باسقة اقوى من الموت ،
لأنها جوهر الحياة ، لقد ربح الصهينيون الجولة الاولى نتيجة للانظمة الرجعية
التي كانت تسيطر على كل الاقاليم العربية . اما اليوم ، وبعد ان دمرنا هذه
الانظمة في كل من الجمهورية العربية السورية والجمهورية العربية المتحدة
والجمهورية العراقية ، وسندمرها في جميع الاقاليم العربية للباقية الاخرى ، فاننا

سنقول لليهود والصهيونية ان الدولة العربية الاتحادية ذات المحتوى الاشتراكي هي في الطريق لتدمير ما يعرف اليوم « بإسرائيل » وذلك بفيانها دكاً ، وهذا الامر محتوم كالقدر .

لقد تم « لهرتزل » ما أرادته ، وتم ذلك نتيجة للتوافق بين اطماع المالية اليهودية العالمية والحركات القومية اليهودية والاستعمار ، وأوجد الوطني القومي وأسست دولة اسرائيل ، وانا هنا اريد أن أتنبأ للحركات القومية اليهودية بنبوءة كالنبوءة التي تنبأ بها هرتزل ونبوءة هذه قد تثير السخرية والضحك في ارجاء « اسرائيل » ولكنني والتي كل الثقة من انها ستتحقق :

انني اقول لكم ايها القوميون اليهود ان المالية اليهودية العالمية ستدخل عنكم قريباً وقريباً جداً ، لان التوافق بين رؤوس الأموال اليهودية ودولة اسرائيل قد بدأ بالتلاشي والزوال ، فلم تعد اسرائيل كما ارادتها المالية اليهودية العالمية قاعدة انطلاق لاستثمار الشرق العربي وجني الارباح وتكديسها ، بل أصبحت سجناً رهيباً للمالية اليهودية العالمية بعد ان فرضت الدول العربية اليوم (والدولة العربية الاتحادية غداً) الحصار الاقتصادي على اسرائيل ، وحرمت التعامل مع أية شركة او مؤسسة تنشط او تعمل في الاراضي الفلسطينية المحتلة . ان المالية اليهودية العالمية ستعود قريباً وقريباً جداً اذا بقي للنظام الرأسمالي من اثر إلى انتهاج السياسة ذاتها التي انتهجتها بين قرني السادس عشر والقرن التاسع عشر ، وهي وضع كل الظروف السياسية في خدمة رأس المال .

اننا نعلم اسباب رغبتكم الجارحة ايها القوميون اليهود في عقد صلح مع العرب ، ونعلم اسباب ضغط الدول الرأسمالية علينا لعقد مثل هذا الصلح ، ونعلم أن منبع هذه الاسباب جميعاً هي المالية اليهودية العالمية التي احبطت العرب جميع خططها وستقضي عما قريب الدولة العربية الاتحادية الممتدة من المحيط الاطلسي حتى الخليج العربي على الاستعمار والمالية اليهودية العالمية واسرائيل .

اننا نحن معشر القوميون العرب الواقعيين في اشتراكيتنا ، والمؤمنين بأن المرحلة القومية مرحلة جوهرية من مراحل الطريق الى الدولة العالمية ، نعلن على

رؤوس الاشهاد اتنا قد اعلناها حرباً لا هوادة فيها ، او لسين ضد الاستعمار
الممثل في الرأسمالية الدولية والمالية اليهودية العالمية واسرائيل ، كما واننا لن نقبل
في المرحلة الحالية من مراحل تبلور القومية العربية ذات الاهداف الاشتراكية
بقيام أية حركة قومية في العالم العربي ما عدا حركة القومية العربية . وبعد
اليوم لا قومية فينيقية ولا قومية يهودية ولا اسرائيل ، بل قومية عربية تتجه
عقب تبلورها الى بناء الدولة العالمية الاتحادية .

فهرس

- العقائد والاخلاق ٧
- ١ - مدخل ٢ - الأخلاق والحضارة الغربية في معسكرها .
- الراسمالية ٢١
- ١ - مدخل تاريخي ب - فلسفة الراسمالية ج - ماهي الراسمالية
د - محاولات ولكنها فاشلة ه - احتكار واحد و - إبقاء المراكز
الاستراتيجية في أيدي امينة .
- الاشتراكية ٦٥
- ١ - مدخل تاريخي ب - رواد الاشتراكية ج - في فشل رواد
الاشتراكية د - كيف ولماذا نشأت الاشتراكية ه - ماهي
الاشتراكية ؟ و - بين اقتصاد الدولة ورأسمالية الدولة
ز - الاشتراكية في المجتمع القومي .
- الشيوعية ٩٧
- ١ - مدخل ب - فلسفة هيغل . ج - دياكتيك هيغل .
و - قوانين الديالكتيك الثلاثة ز - الماركسية ح - المادية
الديالكتيكية ط - اخلاقية المادية الديالكتيكية ي - المادية
التاريخية .
- الصهيونية ١٣١
- ١ - أ هناك فرق بين اليهودي والصهيوني ؟ ب - لماذا اضطهد ويضطهد
وسيضطهد اليهود ؟ ج - المسيحية ثورة على اليهودية د - اليهودية
في خدمة رأس المال ه - الحركة الصهيونية والاستعمار في
العالم العربي .

دار الكايب العربي

للتأليف والترجمة والنشر

بيروت - بناية عشر الخيام - ص.ب ١٥٧

هاتف ٢٤٠٥٠٧ - ٢٤٠٥٠٦ - ٢٩١١١٨

من منشوراتها

ق. ل.

- | | | |
|------|--------------------|---|
| ١٠٠٠ | لأنيس المقدسي | الفنون الادبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة |
| ٧٥٠ | لهير شبرغ | رائد الثقافة العامة |
| ٥٠٠ | لبولتون | مشاهير رجال العلم |
| ٦٥٠ | لآلان فالبارس | أبناء السندباد |
| ٢٠٠ | لعمر فاخوري | آراء غربية في مسائل شرقية |
| ٢٥٠ | لأحد السقاف | أما عائد من اليمن |
| ٢٠٠ | لقدرى قلمجي | تجربة عربي في الحزب الشيوعي |
| ٢٠٠ | لقدرى قلمجي | لينين (حياته وآراؤه) |
| ٤٥٠ | لكارليل | الابطال |
| ٥٠٠ | لقدرية حسين | شهرات النساء في العالم الاسلامي |
| ٤٠٠ | لزهره ديكسون فريث | الكويت كانت منزلي |
| ٢٠٠ | لمحمد أحمد نعمان | من وراء الاسوار |
| ٣٠٠ | لعبد العزيز الخلفي | ادباء السجون |
| ٣٠٠ | لمحمد باقر شري | العراق الثائر |
| ٢٠٠ | لقدرى قلمجي | حفنة من تراب الوطن |
| ٢٠٠ | لنديم المرعشلي | المعتمد بن عباد |
| ٣٠٠ | لهملتون باسو | ثورة الحرية |
| ٣٥٠ | لتوماس مان | شهداء الوطنية |
| ٢٠٠ | لراضي صدوق | كان لي قلب |
| ٣٠٠ | لمحمد جواد مقنية | شعر علي والفلسفة |